# الفصل السادس

# العوامل التى أدت إلى ضعف وانهيار العصبة الهانزية فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

- ويشمل :

1 – الحروب الدائرة بين القوى الدولية الأوروبية وأثرها على الحركة التجارية.

2 – انتشار الأوبئة الفتاكة وانخفاض أعداد السكان.

3 – تلاعب الملوك والأمراء فى النقد والعملة.

4 – تدخل السلطات الحاكمة فى فرض قيود على الاتحاد.

obeikandl.com

obeikandl.com

# (الفصل السادس)

# العوامل التى أدت إلى ضعف وانهيار العصبة الهانزية فى نهاية القرن الخامس عشر

يعتبر التغيير والازدهار ثم الانحسار من القوانين الثابتة فى حياة البشر جميعا، ولم تكن العصبة الهانزية Hanseatic League مستثناة من ذلك، رغم ما حققته من مكانة عظيمة، وتوسعها الذى لاح للجميع فى الخارج، وما وصلت إليه من مظاهر الثروة والغنى لجميع أعضائها فى مرحلة زمنية طويلة، ومع ذلك بدأت علامات الانحطاط والتدهور تظهر عليها بصورة واضحة، فقد بدأت ببعض التشققات والتصدعات التى لا يحمد عقباها والتى أخذت تتهددها بتدهور جزئى ثم ما لبث وأن تبع ذلك تدهور وانهيار كامل[1].

ففى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى أخذت عصبة المدن الهانزية تسير فى طريق انحلال تدريجى أدى إلى انحسار فى سلطانها وغناها[2]، على أن ما تعرضت له العصبة فى ذلك القرن من ضعف ثم انهيار يعود لأسباب عديدة متباينة، منها ما يرجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية، من ذلك روح الأنانية والكبرياء التى سيطرت عليها[3]. إذ كان من الضروري، أكثر من أى وقت مضى، أن تمضى قدمًا إلى الأمام وتواكب تطور العصر، فقد بدأت تخبو الأفكار والمبادئ التى قامت عليها الهانزا، وظهرت حركات تمرد فى الدول ضد المفاهيم التى تعلقت بالأذهان من السمع والطاعة والاحتكار الأناني من قبل هذه العصبة[4]. والتى أصبحت بمرور الأيام عاملاً من عوامل الاستبداد والحماية معًا، إلا أنها أسرفت فى فرض القيود الاستبدادية لاستغلال أعضائها، وأرغمت المدن المنافسة لها بجميع الوسائل على قبول شروطها ولم تتورع عن استئجار القراصنة

---

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.

(2) فشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.

- عن هذه العوامل انظر أيضًا:
- نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.
- Margrit, Networks of the Hanseatic League, PP.12-13.

(4) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.

للإضرار بتجارة أولئك المنافسين، وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشًا خاصة وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول، وبذلت كل ما فى وسعها للضغط على طبقة الصناع التى تحصل منها على بضائعها وترتب على ذلك أن أصبح الكثير من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة فى أى وقت من الأوقات، ولذلك ثار العمال فى إنجلترا عام 783هـ/ 1381م وطاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانزية، واقتفوا آثارهم داخل الكنائس وقتلوا العديد منهم[1]، الأمر الذى يجعلنا نؤكد هنا على أنه إذا كان الاحتكار والاستبداد عاملاً من عوامل الحماية للعصبة الهانزية خاصة فى وقت نموها وازدهارها إلا أنه لم يعد يجدى نفعًا فى النهاية وأصبح سببًا من أسباب ضعفها ثم انهيارها كذلك.

وقد كانت هناك عوامل عديدة أسهمت فى ضعف وانهيار العصبة الهانزية منها:

## 1 – الحروب الدائرة بين القوى الدولية الأوروبية وأثرها على الحركة التجارية:

جاء على رأس هذه العوامل الحروب التى دارت بين القوى الدولية الأوروبية والتى أثرت على حركة التجارة خاصة وأن الحروب لا تترك آثارها على النواحي السياسية والاجتماعية فحسب، وإنما امتد تأثيرها إلى النواحى الاقتصادية أيضًا.

اشتعلت فى أوروبا العصور الوسطى العديد من الحروب خاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين والتى كان لها أثر كبير على الحركة التجارية وكان على رأسها حرب المائة عام The Hundred Years War[2]، بين انجلترا وفرنسا والتى أثرت على العصبة الهانزية حتى وإن لم تكن طرفًا مباشرًا فيها، إلا أنها أسهمت فى تمويل هذه الحرب بما قدمته من أموال كضرائب أو قروض[3] للملوك الإنجليز عبر سنواتها الطويلة أرهقت ميزانية المدن الهانزية، إلا أنهم

---

(1) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص170.
- عن فقدان الهانزا لامتيازاتها فيما بين عامي 1551- 1611م. انظر:
- Lloyd, England and the German Hanse, PP.292-363.

(2) هذه الحرب لم تستمر مائة عام تماماً إذ أن هذه التسمية لا تعدو أن تكون تقريبية تنطوى على كثير من التجاوز وعدم الدقة. عن ذلك انظر:
– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص492.

(3) قد تم تطوير الضرائب فى انجلترا وقد كان منها ما يفرض على الممتلكات وفى عام 554هـ/ 1159م تم تأسيس أول نظام ترتيبى للضرائب متمثلا فى البدلية وهى عبارة عن مال مدفوع فى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. عن ذلك انظر: =

اضطروا لدفعها حفاظًا على امتيازاتهم التجارية داخل انجلترا وحصة مشاركتهم فى تلك التجارة الإنجليزية خاصة تجارة الصوف الإنجليزي.

كانت الضرائب تجمع من الأجانب والإنجليز كذلك، لأنها تمثل مصدرًا من مصادر الدخل للتاج الإنجليزي الذى خاض كثيرًا من الحروب الخارجية وفقا للنظرية القديمة التى ترى أن الملك الذى يستكين فى بلده فإنه يكسر تدريجيًا[1].

وكان الملوك الإنجليز فى البداية لا يلجئون كثيرًا إلى فرض الضرائب، ولكن فى القرن الثالث عشر الميلادى توسعوا فى ذلك الأسلوب بصورة كبيرة[2].

---

= - Cave, Coulson, A Source Book, P.369.

- كان هنرى الثانى Henry II هو من قام فى هذا العام بأخذ البدلية من كل انجلترا وكان الإجمالى 180 ألف جنيه من الفضة. عن ذلك انظر:

- Stubbs, Select Charters of English, A.D. 1159, P.152.

- على أن هذه الأموال لم تكن تجمع للحروب فحسب، وإنما جمعت فى بعض الأحيان لفداء بعض الملوك من الأسر، من ذلك ما حدث فى السنة السادسة من حكم الملك ريتشارد الأول Richard I لفك أسره وتم جمع البدلية بقيمة عشرين شلن Shillings ولم يكن هناك إعفاءات. عن ذلك انظر:

- The Red Book of the Exchequer, Hubert Hall, Ed. (H.M.) Stat. off, 1896, A.D. 1195, PP.79 , 83.

(1) Terry (S.B.) The Financing of the Hundred Years, war 1337 – 1360, London, 1914, PP.XI- XII.

(2) Terry The Financing of the Hundred Years, War, PP.XI- XII.

- من ذلك ما حدث فى عهد هنرى الثالث Henry III، إذ كانت هناك حرب لاسترداد نورماندى Normandy، ومع تكاليف هذه الحرب وإسراف البلاط فإن هنرى لجأ إلى فرض المزيد من الضرائب لإبقاء خزانة بيت المال ممتلئة. عن ذلك انظر:

- Cave, Coulson, A Source Book, P.375.

- إذ فى هذا العام طلب الملك من رؤساء الأساقفة وآباء الأديرة فى كل أنحاء انجلترا أموال كثيرة يدفعونها للملك حتى يستطيع استرجاع الحقوق فى البلاد الأجنبية والتى حرم منها والده.

- وقد كان مواطنى لندن مجبرين على دفع هذه المبالغ الباهظة وقد دفع اليهود للملك 1/3 ممتلكاتهم. عن ذلك انظر:

- Matthew of Westminster, Flowers of History, translated by C. D. Yong, Vol. II, H. G. Bohn, Ed., London, 1853, A.D. 1230, PP.160 – 161.

- على أن بعض ملوك انجلترا انتهجوا طريقا آخر لتغطية نفقاتهم من ذلك ما قام به إدوارد الثانى Edward II من الاستيلاء على ممتلكات فرسان المعبد Templars . عن ذلك انظر:

- Terry, The Financing of the Hundred years war, P.XII. =

برز فى القرن الثالث عشر الميلادى مصدرًا جديدًا للثروة الوطنية النامية تمثل فى تجارة الصوف لذلك بذل هنرى الثالث Henry III جهده من أجل تخفيض الضرائب الغير قانونية التى تفرض على التجارة، وقام إدوارد الأول Edward I فى عام 674هـ / 1275م، بتحقيق المزيد فى هذا الشأن عن طريق الحصول على المنح أو الامتيازات من البرلمان بخصوص التجارة، حيث رأى أنها أفضل وسيلة لتنمية الموارد الوطنية[1]. لذلك أصبحت الضرائب مصدرًا لتمويل الحروب داخل انجلترا، خاصة فى حرب المائة عام وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين انجلترا وفرنسا؛ إذ لم تكن تلك الحروب فصلا جديدًا أو حدثًا مفاجئًا فى تاريخ العلاقات بين البلدين فى العصور الوسطى، لأنها ليست فى حقيقة أمرها إلا حلقة فى سلسلة النزاع الذى بدأ منذ أن امتلك أمراء نوماندى انجلترا، وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلكات ملوك انجلترا النورمان موزعة على جانبى المانش[2].

كانت هذه الحرب ذات تأثير اقتصادى إلى جانب تأثيرها السياسى والاجتماعى على غرب أوروبا ككل وليس فقط على انجلترا وفرنسا فقط لأن الهانزا كانت من ضمن الممولين لهذه الحرب، لأنه بعد طرد اليهود من انجلترا فى عام 689هـ / 1290م احتكر الإيطاليون الأعمال المصرفية ثم نافستهم بعد ذلك الهانزا الألمانية وهانزا لندن – وكانت الأخيرة تضم التجار الفرنسيين

---

= – لمزيد من التفاصيل. عن ذلك انظر:

- Perkins (C.), American Historical Review, XV., No. 2. January 1910, P.253.

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.XII – XIII.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص491.=

– يذكر المؤرخ ستيفنسون أن حرب المائة عام هى نزاع وصراع بين ملوك انجلترا وفرنسا أكثر مما هى نزاع بين الشعب الإنجليزى والفرنسى، حيث نشبت معاركهما نتيجة لأطماع ملوكهما. عن ذلك انظر:

- Stephenson, Medieval History, P.516.

– عن مصطلح حرب المائة عام. انظر كذلك:

– نظير سعداوي، تاريخ إنجلترا، ص130؛ أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم، تاريخ إنجلترا وفرنسا الدور الأول من حروب المائة عام (1337 – 1380م)، ط1، المكتب العربى للمعارف، القاهرة، 2007م، ص83.

- Painter, A History of the Middle ages, P.323.

والفلمنكيين – ولكن حتى تأسيس الأخيرة مؤخرًا لم تكن هناك أى فئة جديدة من التجار الإنجليز قد ظهرت لمنافستهم وربما كان الإيطاليون هم المنافسون الوحيدون[1]. مما أدى إلى إفلاس الكثير من البنوك الإيطالية والإضرار بالمصالح الهانزية كذلك.

خاصة أن هذه الحرب كانت لها أسباب اقتصادية فإذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع على ممتلكات انجلترا فى القارة، إلا أن هناك أسبابًا أخرى أدت إلى إثارة العداء بين البلدين فى نهاية العصور الوسطى أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين زيادة على تعارض مصالحهما السياسية فى القارة[2].

وقد اعتقد الإنجليز أن هذه الحروب سوف تحقق لهم غرضين حيويين، أولهما أنها تمكن البحرية الإنجليزية من السيطرة على جانبى هذا البحر، وثانيهما أنها تؤكد بيع أصواف أغنامهم بأسواق المدن الفلمنكية الصناعية، وتسهل عليهم شراء كميات النبيذ التى يريدونها من بوردو Bourdaux[3]، فضلاً عن إيجاد أسواق جديدة بالقارة الأوروبية لتصدير حديدهم وجلودهم

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, P.XIV.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص492.

– قد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام إلى ثلاث مراحل وذلك لتسهيل دراستها وتميزها عن هذه المراحل. انظر:=

=– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص492 – 493؛ نظير سعداوي، تاريخ إنجلترا، ص130–131؛ أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص84.

– لمزيد من التفاصيل عن الأسباب الأساسية التى دعت إلى حرب المائة عام ونتائجها. انظر:

- Oman (C.W.C.), England and the Hundred years war (1327 – 1785 A.D. ),London, 1898.
- Fowler (K.), The Hundred Years war, London, 1971.
- Painter, A History of the middle ages, PP.323– 360.

(3) بوردو Bourdaux :مدينة فرنسية تقع على نهر الجارون وعلى بعد 96 كيلو متر من البحر وهى ميناء نهرى رئيسى فى الجنوب الغربى من فرنسا، كانت مركزًا تجاريًا مهمًا فى العصور الرومانية فى القرن الرابع الميلادى أصبحت عاصمة لأكوتين. عن ذلك انظر:

– اينهارد، سيرة شارلمان ترجمة / عادل زيتون، دار حيسان للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1989م، ص127.

إليها[1].

إذا فإن هذا الصراع على الرغم من خلفياته السياسية من النزاع على الممتلكات بين الطرفين، إلا أنه كان صراعًا من أجل خدمة المصالح التجارية خاصة فى إقليم الفلاندرز، فإذا كانت دوقية جاسكونى Gascony[2]، هى السبب الرئيسى لحرب المائة عام[3]، فإن هناك أسبابًا أخرى فرعية أهمها الصدام المستمر بين بحارة السفن الإنجليزية والفرنسية فى عصر لم يفرق بين الملاحة والقرصنة، وكذلك التعارض الشديد بين المصالح الإنجليزية والفرنسية فى إقليم الفلاندرز[4]. إذ نشبت هذه الحرب نتيجة حادثة وقعت فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى تبعية إقطاعية والرغبة فى الاستقلال عنه[5]. إذ كان أميرها يطمع فى السيادة الكاملة عليها مما أدى إلى دخوله فى صراع دائم مع ملك فرنسا سيده الاقطاعى الأعلى من أجل الاحتفاظ بكيان إمارته السياسة، وقد كان أمراء الفلاندرز يتلقون العون من ملوك إنجلترا، والذين كان هدفهم إضعاف وتفتيت الملكية الفرنسية[6].

بالإضافة إلى جانب أهمية هذا الإقليم بالنسبة لإنجلترا من الناحية التجارية، فقد كانت الصناعة فى كل مدن الفلاندرز تقريبًا تعتمد على الصوف الخام المستورد من انجلترا لذا كانت مدن الفلاندرز حريصة على الحفاظ على استقلالها وحذره من امتداد الهيمنة الفرنسية عليها، التى تفقدها

---

(1) نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص131 – 132.

(2) جاسكونى Gascony: إقليم يقع في الجنوب الغربي من فرنسا تحده جبال البرانس من الجنوب وخليج بسكاي من الغرب، واسم هذا الإقليم مشتقاً من الباسك أو البشكنس وهي القبائل الإسبانية التي اجتازت البرانس واستولت على هذا الإقليم في القرن السادس، وعُرف باسمهم. عن ذلك انظر:
- Moore, The Penguin Encyclopedia, P.298.

(3) عن النزاع حول مقاطعة جاسكونى. انظر:=
- Robert (M.), Rayner (B.A.), A Concise history of Britain, London, N.D. P.91.
- Terry, The Financing of the Hundred years, P.6
– أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص104.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص493.

(5) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص133.

(6) أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ انجلترا وفرنسا، ص94.

امتيازاتها الموروثة من جهة وتعوق اتصالاتها التجارية مع انجلترا من جهة أخرى[1]، ونظرًا لأهمية هذا الإقليم فإنه كان محور الصراع بين الإنجليز والفرنسيين حتى قبل بداية حرب المائة عام وكما أن تجارة الصوف بين البلدين تأثرت كثيرًا من جراء ذلك.

تأثرت التجارة بين انجلترا وفرنسا بالحرب الدائرة بين هنري الثالث Henry III (1216 – 1272م) ولويس التاسع Louis IX (1226 – 1270م) فى أكوتين Aquitaine عام (640هـ/1242م)[2]، إذ رفض الرهبان السسترشيان Cistercians[3]، المساهمة فى المصاريف الملكية ولذا منع هنرى تجارة الصوف المربحة مع القارة وكان أكثر المضارين فى هذا الوقت هم التجار الفلمنكيين Flemish، والفلورنسيين Florentine المهتمين بشراء الصوف من انجلترا[4]، وفى نفس الوقت أصدر الملك الفرنسى بأسلوب غير معتاد أوامره بمنع عبور التجار الإنجليز ببضائعهم داخل مملكته، وبناء عليه أصدر ملك انجلترا أوامره أيضًا بأن يعامل التجار الفرنسيين فى أى مكان فى انجلترا بنفس المعاملة[5]. وبناء على ما سبق قام ملك انجلترا فى عام 642هـ / 1244م بمنع نقل الصوف الخاص بالرهبان السيسترشيان إلى القارة ليباع لصالحهم وإجراء مثل هذا يؤكد تعرضهم للخسارة لأنهم لم يقدموا له المساعدة اللازمة للملك عند حربه فى جاسكونى Gascony[6].

وهكذا تعارضت المصالح الإنجليزية والفرنسية فى إقليم الفلاندرز وكانت الأساليب التى تتبع

---

(1) أسامة حسيب، تاريخ انجلترا وفرنسا، ص95.

(2) أكوتين Aquitaine: تقع جنوب غرب فرنسا وتمتد من جبال البرانس إلى نهر اللوار وكانت تخضع للرومان حتى قام الملك الفرنجى كلوفيس بغزوها عام 507م وتعاقب على حكمها بيبن القصير عام 768م ثم شارلمان 781 م الذى منحها لأبنائه من بعده، وبعد الفترة الكارولنجية أصبحت إقطاعًا قوياً فى القرن الحادى عشر الميلادي وكانت تضم قطاعات كثيرة أهمها بواتية وليموج وبوردو وجاسكوني وأوفرون. انظر:
- Webster, Webster New geographical, P.63.

(3) السسترشيان: تنسب الحركة الديرية السسترشيانية إلى بلدة سيتو Citaux فى برجنديا بوسط فرنسا وقد تم تأسيس ديرسيتو هذا فى عام 1098م بواسطة مجموعة من الرهبان البندكتين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ. عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص38؛ نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص86.

(4) Cave, Coulson, A Source Book, P.107.

(5) Royal Interference with trade, in: Matthew of Paris, English History, Vol. I, A.D. 1242, P.410.

(6) Matthew of Paris, English History, A.D. 1244, Vol. I, P.511.

من الجانبين تضر التجارة عبر هذا الإقليم وليس من شك فى أن هذا قد أضر بتجارة العصبة الهانزية التى كانت أحد مراكزهم الخارجية تقع فى بروج Bruges، فى الفلاندرز، إلى جانب أن هؤلاء التجار كانوا هم من يقومون باحتكار التجارة النشطة فى الصوف والمنتجات الصوفية بين الفلاندرز وانجلترا قبل أن ينافسهم فيها التجار الإنجليز.

لم يقتصر الأمر بين الطرفين على حد منع التجار من العبور أو منع تصدير الصوف فحسب، وإنما امتد إلى أبعد من ذلك ففى عام 737هـ / 1336م ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز[1]، بناء على تعليمات صدرت إليه من سيده فيليب السادس[2] (729 – 751هـ / 1328 – 1350م) بباريس بالقبض على جميع المقيمين ببلاده أو العابرين إليها من الإنجليز وزج بهم فى السجون بتهمة تحريضهم أهل الفلاندرز على الثورة ضد السيادة الفرنسية، وتغذيتهم بالآراء الثورية التقدمية وردت إنجلترا على ذلك الاعتداء الشنيع فى السنة التالية بمنع تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد الفلاندرز ومنع الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الصوفية الفلمنكية رغبة فى شل الحركة التجارية[3]، وسعى الملك إدوارد فى الوقت نفسه إلى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى

(1) كان لويس كونت الفلاندرز تابعًا لملك فرنسا – فيليب السادس– قد ثار أهالى الفلاندرز ضده فاضطر لويس إلى الفرار مما جعل فيليب السادس يسرع لحمايته فأعاده إلى بلاده بعد أن أنزل بالفلمنكيين هزيمة ساحقة فى كاسل Cassel سنة 1328م.عن ذلك انظر:
– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص493 – 494.

(2) فيليب السادس: تولى عام 1328م، عندما توفى أخر أبناء فيليب الرابع ملك فرنسا دون أن يترك وريثًا ذكرًا يخلفه على العرش فاستغل إدوارد الثالث الفرصة وطالب بعرش فرنسا على أساس أن أمه ابنه فيليب الرابع، وعلى هذا يبدو حقه فى عرش فرنسا، ولكن زعماء فرنسا لم يوافقوا على مبدأ أحقية الإبنة فى وراثة العرش، ولذلك اختاروا فيليب فالوا – الذى أصبح فيليب السادس (1328 -1350) – ليؤسس أسرة جديدة حلت محل أسرة كابيه فى حكم فرنسا. عن ذلك انظر:
– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص493.

(3) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص133 عن ذلك انظر أيضًا:
– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص494.
– عن القرارات المتخذة من الجانبين فى عامى 1336 – 1337م ونتائجها. انظر:
- Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.5- 6.

بلاده وأسكنهم فى إقليم نورفلك Norfolk[1]، وبدأت تظهر صناعة الأصواف فى ذلك الإقليم، وكانت النتيجة الطبيعية لتلك المقاطعة التجارية بين انجلترا ومدن الفلاندرز أن حل الخراب الاقتصادى بالأخيرة ونسبه الأهالى إلى سياسة ملك فرنسا الخاطئة فقامت الثورات فى تلك المدن التى سادت بها روح النظم الإنجليزية الديمقراطية[2] نتيجة الروابط التجارية القديمة بين الإقليمين[3].

ونستطيع أن نؤكد هنا أن نمو صناعة الصوف داخل الأقاليم الإنجليزية هو الذى دفع الإنجليز فيما بعد إلى رفض الاحتكار التجارى الذى مارسه تجار العصبة الهانزية داخل انجلترا، وبوجه عام فقد ازدادت حدة العداء تجاه تجار الهانزا فى انجلترا وفى غيرها من البلدان وأصبح التجار المحلين يسعون إلى أن يشاركوا بأنفسهم فى التجارة الشمالية.

أما فيما يتعلق بصناعة الملابس الإنجليزية المتزايدة فإنها توقفت ولم تغزو الأسواق العالمية بسبب سياسة الملوك الاقتصادية "حيث فرضوا ضرائب استثنائية على صادرات الصوف إلى الحد الذى شجع على المبيعات المحلية، وإنتاج الملابس المحلية"، وهذا أدى إلى استياء متزايد حول سيطرة الهانزيين على التجارة فى أواسط القرن الخامس عشر فقد أصبح الإنجليز مولعين بأن يكونوا تجارًا

---

(1) نورفلك Norfolk: كونتيه إنجليزية تضم مناطق الجنوب حيث منطقة Cambridgeshire ومن الغرب Lincolnshire ومن الشمال والشرق بحر الشمال. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. VII, P.387.

(2) النظم الإنجليزية الديمقراطية: سادت النظم الديمقراطية داخل انجلترا منذ زمن بعيد ممثلة فى العهد الأعظم (الماجناكارتا) الذى حدد العلاقات بين الملك وأتباعه وبين الكنيسة والدولة، كما ساعد الإكثار من دعوة البرلمانات الإنجليزية إلى الانعقاد لمشاورتها فى مختلف المسائل القومية، ساعد بلاريب على تربية البلاد تربية سياسية سليمة. عن ذلك انظر:
- نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص95، 112.

(3) نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص133.
- كان إدوارد يقوم بتأييد مواطني المدن الفلمنكية ذات المكانة الكبيرة في صناعة ونسج القماش أمثال غنت Ghent وبروج Bruges في تمردهم ضد أكبر لورداتهم كونت الفلاندرز، وقد ناشد كبار لورداتهم ملك فرنسا حيث قام الأخير بإعلان أن إدوارد من خلال دعمه لهؤلاء المتمردين فى طلباتهم من الأفصال التابعين لدولته فإنه قد خسر بذلك إقطاعيته جاسكونى تماما، كان هذا هو السبب المباشر للحرب. عن ذلك انظر:
- Robert, Rayner, A Concise history of Britain, P.92

وسعوا إلى الحصول على حقوق تبادلية فى البلطيق لكن دون فائدة[1].

وكانت تلك السياسة التى انتهجها ملوك انجلترا فى فرض الضرائب على صادرات الصوف تهدف إلى تغطية تكاليف حربهم مع فرنسا – حرب المائة عام– إذ قام إدوارد الثالث Edward III، فى عام 738 هـ/ 1337م باتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين احتكار التاج لإنتاج الصوف لهذا العام وكانت الخطوة الأولى، عندما قام البرلمان بوقف مؤقت لتصدير الصوف وبعد المفاوضات المتكررة مع التجار الانجليز، وفى يوم 21 يوليو شرع إدوارد فى اتخاذ الخطوات النهائية للبرنامج الذى يبدو أنه تم إعداده من شهر مارس، ونص على أنه يجب بيع ثلاثين ألفًا من بالات الصوف بأسعار محددة من قبل المجلس وبعدها يتم تصديرها للجهات التى يحددها المجلس، وأن يتم بيعها هناك على أن تعود أرباحها إلى الملك، ومن السمات البارزة لهذا المخطط هو أن الشئون الداخلية أوكلت إلى التجار الإنجليز، كما تم تحديد الأسعار التى يجب دفعها للصوف فى كل كونتيه ومقاطعة، وكان التجار يحصلون على مساعدة موظفى الملك فى الجبايات وفى حماية أسطولهم المحمل بالأصواف[2].

وهكذا كان إدوارد يقوم بجمع الأموال اللازمة لتلك الحرب من خلال فرض سيطرته على تصدير الصوف الانجليزي إلى جانب القروض الضخمة التى حصل عليها من المصرفيين اللومبارديين والاستيلاء على بضائع الأجانب وممتلكات مقدمى الأديرة والاقطاعات الغربية–في انجلترا وفرنسا–،

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.19.
(2) Terry, The Financing of the Hundred Years war, PP.6 – 7

– قد كان يتم تحديد جميع الرجال الذين يتعين عليهم القيام بجمع الضرائب على تصدير الصوف، وكان يتم تحديد مسئوليات كل منهم علاوة على ذلك كان للتجار شرف الاجتماع معا فى نورثها مبتون Northampton عندما يرغبون ويكون الحكم لصالح الملك، بعد أربعة أيام فى 26 يوليو، كما أصبح من حق التجار كل فى المقاطعة المسئول عنها تحديد المبالغ التى يجب أن تجبى منها على الصوف فى كل مقاطعة. وفى نفس الوقت كان هناك إشعارات إلزامية أرسلت إلى جامعي الضرائب، الذين كان قد وصل إليهم من شهر مارس (Coket) مختوم من أجل وقف تصدير الصوف، وتم إرسال ملاحظات لهم للسماح للتجار المحدد أسماؤهم بتصدير الصوف طبقا لمعدلات الجمارك المذكورة فى العقد، ولكنها فى الوقت الحالى اقتصرت على أية حال على 10.000 بالة. عن ذلك انظر:

- Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.7-8

- عن الحقوق الاحتكارية التي مارسها إدوارد الثالث على تجارة الصوف الإنجليزية من أجل دعم حرب المائة عام. عن ذلك انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.336-337.

والأجانب لتوضع فى يد الملك[1].

شهدت السنوات من 738 – 741هـ/ 1337 – 1340م منافسة عامة بين جميع تجار الهانزا، والفلمنكيين واللومبارديين، والإنجليز، بسبب التمويل إلا أن أساليب الحكومة الانجليزية فى ذلك أخذت صورة متهورة ومبتذلة، فلقد كان الملك إدوارد الثالث Edward III، حريصًا على مواصلة الحرب، إذ لم يتنبأ بالعواقب ولم يفكر إلا فى وضع الجيوش فى آن واحد فى الميدان ضد فرنسا. لذا وجد نفسه مديونًا من الائتمان بديون هائلة فكثر الدائنون الأجانب مما أدى إلى ضياع ثروات البلاد وأثار المعارضة الساخطة عليه من 741 – 744هـ / 1340 – 1343م فاضطر حزب الإصلاح الانجليزى إلى مواجهة الدائنين الأجانب للتاج للاستحواذ على التمويل وتعد هذه الفترة هى التى سهلت للتجار الانجليز الوصول إلى السلطة، وفى عام 744 هـ / 1343م تكونت أولى الشركات الانجليزية لتحسين موارد التاج الانجليزي، وظهروا بأنفسهم فى السلطة أثناء كارثة الوباء الأسود Black Death[2]، الذى دمر أوروبا وأدى إلى سقوط لومبارديا وأطاح بالهانزا

(1) Terry, The Financing of the Hundred years war, PP.8 – 9.

(2) الوباء الأسود: اجتاح أوروبا فى الفترة (1348 – 1349م) وقد حصد من الناس أكثر مما أفنته مائة سنة من الحروب، فى العصور الوسطى إذ امتد الموت الأسود وهو طاعون دملى من أحد مواطنه بالشرق الأقصى – ولعلها الهند – عبر طرق التجارة الدولية فى تلك العصور إلى أوروبا بعد أن وصل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط، إذ زحف من آسيا على امتداد طريق التجارة البرى الرئيسى بين الشرق والغرب ومن ثم تطرق إلى شرق أوروبا وغربها فضلا عن بلاد الشرق الأدنى، كأن هذه الطرق لم تكن تحمل البضائع والحياة للناس فحسب، إذ فى بعض الأحيان كانت تحمل العدوى والموت كذلك.

- ولقد وصف المؤرخ المصرى المشهور المقريزى هذا الطاعون وصفًا مسهباً فكان وصفه خير وصف لأعراض هذا الوباء وآثاره فى البلاد التى انتشر فيها، فقال: إنه عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبًا.
- وأصاب جميع أجناس بنى آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر، وأول ابتدائه شمال البحر الأسود، وبحر قزوين وحوض الثلجا، وحملته الريح إلى بقية البلاد، فمر باسطنبول وأنطاكية وبغداد وجميع بلاد الشام، وابتدأ فى أرض مصر فى خريف 748هـ، فمات بالقاهرة والفسطاط ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس كل يوم. عن ذلك انظر:
- المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ/2، ق/3، تحقيق/ محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1941م، ص ص772- 781؛ نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص139 – 140؛ سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص591 حاشية (58). =

.Hanse[1]

وإذا تتبعنا نتائج هذه الحرب من الناحية الاقتصادية نجد أنها أفلست الخزانة المالية فى كل من الدولتين وامتصت كل مواردهما، وأفسحت مجال الربح لرجال المال الإيطاليين، والمرابين اليهود فى لندن، لأنهم أقرضوا المال لإدوارد الثالث فضلا عن اقتراضه من بنوك الفلاندرز، كما أجبرت الحرب الانجليز على تصنيع أصواف أغنامهم أقمشة فى انجلترا بدلا من تصديرها خامًا إلى أسواق أوروبا فأقاموا المصانع فى بلادهم، ووضعوا اللبنات الأولى للصناعة ولنمو الرأسمالية، كما جعلتهم يفرضون ضريبة الرأس على جميع المواطنين عام 783هـ/ 1381م لسد نفقات الحرب[2].

كان البدء فى هذه الصناعة ورغبة الانجليز فى العمل بالتجارة أيضًا الدافع إلى مواجهة التجار الأجانب داخل مدنهم ورفضهم لسيطرة هؤلاء التجار الاحتكارية على تجارة الصوف الانجليزية، فتم نتيجة لذلك مواجهة تجار الهانزا لكسر سلطتهم الاحتكارية على الرغم من أنهم كانوا مصدرًا رئيسيًا من مصادر تمويل التاج فى تلك الحرب[3]. وإذا كانت هذه المواجهة قد سببت أضرارًا كبيرة للهانزا داخل لندن، إلا أنها لم تنه وجودها فى انجلترا آنذاك إذ من اللافت للانتباه أن تجار الهانزا ظلوا يشاركون فى معارض انجلترا بشكل أفضل معظم فترات أواخر العصور الوسطى، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كانت تحميهم الحقوق التى منحتها لهم التحالفات أثناء حرب المائة عام وحرب الوردتين Wars of the Roses[4]، وهذا ما جعل الامتيازات التى حصلت عليها الهانزا فى

---

= - Hecker (M.D.) The Black Death in the Fourteenth Century, tre. Babington (M.D.), London, 1833, P.55.

(1) Terry, The Financing of the Hundred Years war, P.XX.

(2) نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص167؛ أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ انجلترا وفرنسا، ص ص320 – 321.

(3) فلقد رأينا من قبل كيف أن إدوارد الثالث قام فى عام 1369م، بمطالبة المساهمة لحرب غير عادية من التجار الأجانب المقيمين فى لندن، حيث طلب مبلغ قدره 62 جنيها استرلينى من جميع التجار الألمان. عن ذلك انظر:

- The Hanse Towns, in: Colvin, The Germans in England, P.237.

(4) حرب الوردتين (1435 – 1485م) لم تكد انجلترا تختم حرب المائة عام على فرنسا عام 1453م حتى بليت بحروب داخلية أهلية عرفت باسم حرب الوردتين التى خاضها فرعان متنافسان على عرش انجلترا، وينتميان أصلا إلى أسرة إدوارد الثالث، هما فرع أسرة لنكستر صاحبة الوردة الحمراء، وفرع أسرة يورك =

انجلترا تستمر وتتجاوز بسبب استفادتهم من التاج الانجليزى، حتى وإن أسفرت العلاقات المتوترة عن حرب الأنجلو هانزا، التى استمرت لأربعة أعوام فى الفترة من عام 875 – 879هـ / 1470 – 1474م إلا أن الوجود الهانزي فى انجلترا ظل حتى تم تدمير ستيليارد لندن فى عام 1077هـ/1666م[1].

كما أعطت حرب الثلاثين عامًا[2]، المدمرة ضربة قاسمة للعصبة الهانزية لم تترك تلك الحرب وراءها سوى كومة من الأطلال وقد كانت عواقبها وخيمة حتى أن ألمانيا لم تشف من بعض آثارها لفترة طويلة لاحقاً[3].

## 2 – انتشار الأوبئة الفتاكة وانخفاض أعداد السكان:

يذكر المؤرخ بيرين أنه من الممكن اعتبار بداية القرن الخامس عشر الميلادى نهاية مرحلة اتساع اقتصاد العصر الوسيط، وحتى ذلك التاريخ كان التقدم مستمرًا فى كل الاتجاهات، ولقد صار

---

= صاحبة الوردة البيضاء، وانضم إلى كل من الفرعين أنصار من النبلاء وأتباعهم وصار السبب العام لهذه الحرب أن النبلاء الإنجليز ضاقوا بالحياة الوادعة فى ظلال السلم الذى أعقب حرب المائة عام. عن ذلك انظر:

- نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص170 – 172.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.19.

- قد ظلت مباني الستيليارد Steelyard بلندن قائمة حتى تم إحراقها وتدميرها عام 1666م. عن ذلك انظر:

- Colvin, The Germans in England, P.238
- Quesenbery, The Institutional Success, P.25.

- لمزيد من التفاصيل. عن ذلك انظر:

- Der hansische Stahlhof Vom Jahre 1598 bis Zum grossen Brande von London 1666,in:Lappenberg,urkundliche Geschichthe, PP.107-120.

(2) حرب الثلاثين عاماً: هي اسم تقليدي للفترة (1618–1648م)، هي عبارة عن 50 عاماً من سنوات الصراع لتوازن القوى الأوربية (1610–1660م)، التي قام بها أسرة الهابسبورج Habsburgs والأمراء الألمان. وكان ذلك في إطار نضّال فرنسا ضد الحصار من قبل قوى هابسبورج (النمسا وأسبانيا) والجهود التي تبذلها الجمهورية الهولندية (المقاطعات المتحدة من هولندا)= =للحفاظ على استقلالها عن أسبانيا. وفي بداية حرب الثلاثين عاماً كانت الدانمارك والسويد تتنافسان على السيادة على البلطيق. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.957.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.215.

التحرير المتزايد لطبقات الفلاحين يدًا بيد فى جهة إصلاح الأراضى غير المزروعة أو الأراضى البور وإصلاح صرفها وإعمارها مع استيطان القبائل الجرمانية للأراضى وراء الألب، ولقد غير قيام الصناعة والتجارة شكل المجتمع وكيانه بالفعل تغييرًا تامًا، بينما أصبح البحر المتوسط والبحر الأسود من جانب وبحر الشمال والبلطيق من جانب آخر مسارح لتجارة كبرى، وانبثقت الموانىء والمراكز التجارية على طول سواحلها وفى جذورها، وتغطت أوروبا بمدن لمع نور نشاط طبقتها الوسطى الجديدة فى كل اتجاه، وفى ظل هذه الحياة الجديدة، كان التعامل المالى تعاملا متكاملاً، واستخدمت أشكال التسليف والائتمان، وتقدم إقراض رؤوس المال، وأخيرًا بدا النمو السكانى إشارة لا تخطىء لصحة ونشاط المجتمع، وخلال السنوات الأولى من القرن الرابع عشر شهد إعادة النظر فى كل هذه الاتجاهات ولم يكن من المحتمل حدوث تدهور بقدر ما حدث من جمود لكل ما سبق، فلقد عاشت أوروبا، كما يمكن القول على ما كانت قد اكتسبته بعد أن استقرت جبهتها الاقتصادية[1].

ولعل الدليل على هذا الانقطاع فى النمو الاقتصادى نجده فجأة في حقيقة انحسار حجم التجارة الخارجية وحتى زمن الكشوف الجغرافية العظيمة فى منتصف القرن الخامس عشر لم يتجاوز النمو الاقتصادى النقاط القصوى التى وصل إليها على يد البحارة الإيطاليين فى الجنوب وعلى يد الهانزا فى الشمال، ونعنى بذلك، موانىء بحر إيجة والبحر الأسود من جانب ومن الجانب الآخر سوق نوفجورود الروسى[2]. إذ من العدالة أن نشير إلى أن القرن الرابع عشر لم يواصل تقدمه، بسبب الكوارث التى لحقت به وكانت مسئولة عن ذلك، ولقد بدا أن المجاعة المخيفة التى سببت الخراب لكل أوروبا من 715هـ/ 1315 م إلى 717 هـ / 1317م والتى لم يشهد مثلها من قبل، وأن الأرقام التى ذكرت حول مدينة يبرس Ypres، تجعلنا نقدر اتساع هذه المجاعة حتى أن حكومة المدينة كانت قد أمرت بدفن ألفين وسبعمائة وأربعة وسبعين جثة من بداية مايو حتى منتصف أكتوبر 716هـ/1316م وهو عدد كبير إذا ما وضعنا فى اعتبارنا حقيقة أن عدد سكان هذه المدينة كان آنذاك لا يزيد عن عشرين ألف نسمة، وبعد ذلك بعدة سنوات حدثت كارثة أكبر، ألا وهى انتشار الطاعون (الموت أو الوباء الأسود Black Death)، فى العالم الذى لم يكن قد فاق

(1) تاريخ أوروبا، ص ص181 – 182.
(2) بيرين، تاريخ أوروبا، ص182.

بعد من ضربته الأولى[1].

وهكذا نجد أن المحن قد تكالبت على أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ما بين مجاعات طاحنة أطاحت بأعداد السكان وحروب مهلكة كبدت أوروبا خسائر كبيرة فى الأرواح والممتلكات وأوبئة فتاكة أهلكت الآلاف من البشر فى أوروبا وفى العالم بأسره، مما أدى إلى تدهور النظام الاقتصادى وتراجع نموه إذ ان النمو السكانى والازدهار الذى تميز به الاقتصاد الأوروبى منذ منتصف القرن العاشر بدأ فى التلاشى والضمور، وانزلقت أوروبا فى تدهور طويل ومربك استمر حتى منتصف القرن الرابع عشر مما جلب السخط الاجتماعى والتمرد الذى يشيع فى مرحلة الانكماش الاقتصادى[2]، فقد اتصفت أواخر القرون الوسطى تلك بالركود الاقتصادى إلى جانب أن الوباء الأسود أهلك سكان أوروبا فى عام 749 هـ / 1348م وتلاه بعد ذلك كل عشر سنوات نوبات للمرض، أما الحروب والمجاعات فقد أدت إلى تفاقم الوضع الاقتصادى وجعلته يسوء يومًا بعد يوم فقد انخفض الإنتاج الزراعى والطلب عليه فى الوقت الذى ظهر فيه الطلب على بعض المنتجات غير الزراعية، كما أن عدد السكان كان فى تناقص ولم يشهد زيادة تذكر.

وعلى الرغم من أن التجارة الهانزية قد تحملت تلك الظروف فى هذا العهد، إلا أن القوة الدافعة للتوسع الألمانى فى الشرق هدأت حيث وصل المهاجرون الجدد محل سابقيهم دون أن يحدثوا إضافة فى الطاقة الإنتاجية[3]، وهو ما يدفعنا إلى أن نؤكد على أن هذه العوامل والأسباب السابقة الذكر واللاحقة كذلك قد أدت إلى ضعف العصبة الهانزية وساهمت فى انهيارها فيما بعد إذ أنها ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر الميلادى (1666م) إلا أنها بدت فى حال غير الحال إذ لم تعد على ما كانت عليه من توسع وازدهار ولم تعد تتمتع بالاحتكار كذلك.

كان الوباء الأسود، الذى اجتاح أوروبا (749 – 750 هـ/1348 – 1349م) أشدها تأثيرًا فقد كان أكثر الأوبئة التى ذكرت فى التاريخ فظاعة دون نزاع، وحتى قدر أنه من سنة 748هـ/1348م حتى سنة 751هـ/1350م من المتوقع أن يكون قد أهلك ثلث سكان أوروبا

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص183.

(2) نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة / قاسم عبده قاسم، ج2، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997م، ص625.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18 – 19.

وقد أعقبه فترة غلاء شديد[1].

وهكذا استعر الأمر واشتد الكرب بالناس، على أنه مهما يكن مصدر هذا الوباء فإنه انتقل من آسيا الصغرى إلى إيطاليا وإسبانيا، ثم زحف إلى فرنسا عن طريق مرسيليا ودخل انجلترا من عام 1348 إلى عام 1349م عن طريق مقاطعة دورستشر Dorchester[2]، ثم تحول شرقًا فاجتاز ألمانيا وبلاد شبه جزيرة اسكندناوة ومنها اشتعل فى بولندا والنمسا وروسيا وعكف ذلك الطاعون على اختيار الشباب والأقوياء دون غيرهم من الناس وأخذهم أخذًا سريعا بعض الأحيان إشفاقًا بهم، وبسببه اضطرت انجلترا وفرنسا إلى الكف عن القتال لكثرة الوفيات التى اختلف المؤرخون فى أرقامها إذ قدرت الأموات فى انجلترا وحدها بما لا يقل عن ربع سكانها البالغ عددهم حينذاك أربعة ملايين تقريبًا، وذكر بعض المؤرخين أن انجلترا فقدت نصف سكانها وأن مدينة لندن دفنت خمسين ألف جثة فى مقبرتها الجديدة المقامة على ثلاثة عشر فدانًا، وأن اثنين من رؤساء أساقفة كانترى ذهبا ضحية هذا الوباء، كما ماتت بسببه الأميرة جوانا ابنة الملك وأن خسارة طبقة رجال الدين كانت أفدح من طبقات المجتمع الأخرى[3].

وهكذا عانت أوروبا بأسرها من جراء هذا الوباء حيث كثرت ضحاياه وأكثر ما يهمنا هنا هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التى ترتبت عليه، ذلك أن أوروبا فقدت بسبب هذا الوباء نسبة ضخمة من سكانها تتراوح بين الثلث والنصف مما أثر فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية تأثيرًا خطيرًا، بعد أن قلت الأيدى العاملة وتعطلت الأشغال وارتفعت الأسعار، وتوقفت التجارة، واختل الكثير من المقاييس الاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى[4]. وليس أدل على ذلك من الهجرة التى اجتاحت مدن أوروبا حيث حاول الناس الهروب

---

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص183 – 184.

(2) دورستشر Dorchester: مقاطعة بإنجلترا، تطل على الساحل الجنوبي بين ديفونشاير Devonshire غرباً، وهامبشاير Hampshire شرقاً، ويحدها شمالاً Wiltshire وSomersetshire. عن ذلك انظر:

- Conder (J.), A dictionary of geography, ancient and modern, 1834, P.195.

(3) نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص140 – 141.

– لمعرفة بعض الحسابات والأرقام عن ضحايا الطاعون الأسود بالمدن الأوروبية، انظر:

- Hacker, The Black Death, PP.58 – 66.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص591.

من ذلك الوباء، أما مدينة لوبيك التى تماثل البندقية فى الشمال فلم تعد قادرة على احتواء الجموع الغفيرة التى اندفعت إليها، والتى كانت فى حالة من الذعر إثر انتشار وباء الطاعون، حيث دمر المواطنين أنفسهم كما لو كانوا قد أصيبوا بالجنون، حتى أن التجار الذين كانوا يسعون للأرباح والتملك والربح غير المحدود قد تخلوا بطيب خاطر عن بضائعهم الدنيوية، فقد حملوا كنوزهم للأديرة والكنائس ووضعت لهم أسفل المذبح[1]. فلم يكن فى وسع الناس فى وسط تلك المحنة سوى الهروب نحو الكنائس والأديرة متضرعين سائلين كشف هذه الغمة، وطالبين رحمة الكنيسة وحمايتها[2].

وليس أدل على ما وصل إليه الناس من جراء هذا الوباء أكثر من وصف المقريزى (صارت الأموات على الأرض لا يوجد من يدفنها، وعم الوباء جميع تلك الأراضى، ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع، وزهد أرباب الأموال فى أموالهم)[3]، وإن كان وصف المقريزى للوباء فى الشرق، إلا أن الوضع كان مماثلا فى الغرب كذلك.

ومن الملاحظ أن أثر الوباء الأسود لم ينته عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وإنما استمرت نتائجه – ممثلة فى قلة الأيدى العاملة وارتفاع الأجور والأسعار – تؤثر فى أحوال أوروبا حتى نهاية ذلك القرن[4]. خاصة وأن الكوارث الطبيعية كانت مصاحبة لكوارث سياسية ليست أقل منها، فلقد تمزقت إيطاليا من الحروب الأهلية طوال هذا القرن، أما ألمانيا فكانت نهبًا لفوضى سياسية دائمة، وأخيرًا فإن حرب المائة عام دمرت فرنسا وأجهدت انجلترا كل ذلك كان اثقالا لكاهل الحياة الاقتصادية فقد تقلص عدد المستهلكين وفقد السوق جزء من قوة تماسكه، وزادت هذه النوائب بالتأكيد من حدة المشاكل الاقتصادية التى جعلت القرن الرابع عشر الميلادى أعنف من القرن الثالث عشر الميلادى[5]، خاصة مع ثورات الفلاحين والحرفيين ضد الارستقراطية، إذ تزايدت هذه الثورات وعمت أوروبا نتيجة لسياسة الاحتكار التى مارستها هذه الطبقة الصغيرة

(1) Hacker, The Black Death, P.61.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص591.

(3) المقريزى، كتاب السلوك، جـ/2، ص778.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص ص591 – 592.

(5) بيرين، تاريخ أوروبا، ص184.

الارستقراطية، على الرغم من معاناة باقى الطبقات الأخرى[1].

ونستطيع أن نؤكد هنا أن العصبة الهانزية تأثرت بكل هذه الظروف السائدة فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى من حروب طاحنة وأوبئة فتاكة وثورات كذلك، إلا أن تجارتها نجحت فى تحمل كل تلك الظروف، على الرغم من انكماشها على نفسها وأنها لم تعد تحدث إضافة فى الطاقة الإنتاجية.

## 3 – تلاعب الملوك والأمراء فى النقد والعملة:

كان توافر العملات جيدة السبك، ذات القيمة المستقرة، أمرًا ضروريًا من أجل تحقيق الاستقرار الاقتصادى، إذ لا يمكن أن يكون هناك نمو اقتصادى وتجارى دون توفر عملات ذات أوزان معلومة وهو أمر ضرورى كذلك لتطور النظم والمعاملات المالية.

أدرك الملوك والكونتات فى أوروبا هذا الأمر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، لذا سعوا إلى إيجاد عملات جيدة للتعامل داخل الأسواق وفى التعامل الاقتصادى فقد حرص كونت الفلاندرز على إيجاد نظام عملة مستقر وجيد[2]، إلى جانب ما قام به الإمبراطور فردريك بربا روسا Frederick Barbarossa كذلك من إيجاد عملات ذات أوزان ثابتة[3]، وهو ما قامت به مدن الهانزا كذلك فى عام 653 هـ / 1255م، حين اتفقت كل من هامبورج Hamburg، ولوبيك Lübeck، على توحيد العملة وعدم سك أى طرف منهما عملة جديدة دون موافقة الطرف الآخر[4].

ولعل الدافع وراء ذلك لم يكن الرغبة فى النمو الاقتصادى والمحافظة على المعاملات التجارية فحسب، وإنما أيضًا لأن أوروبا العصور الوسطى عانت من مشكلات كثيرة فيما يتعلق

(1) عن ثورات الفلاحين والحرفيين التى عمت أوروبا وأسبابها ونتائجها، انظر:
– بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص184 – 194؛ نظير سعداوى، تاريخ انجلترا،ص ص145 – 146.
(2) A Charter for the Town of St. Omer, in: Kemble, The Saxons in England, A.D. 1127, Vol. II, Appendix, P.528.
(3) Grant of two Fairs at Aix – la – Chapelle, in: Menadier, Die Aachener Munzen, A.D. 1166, P.58.
(4) Coinage Agreement Between Hamburg and Lübeck, in: Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1255, P.71.

بالنقد والمعاملات التجارية، منها أن كثير من الأمراء الإقطاعيين كانوا يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم[1]، ولا يخفى ما فى ذلك من أضرار إذ لا يمكن التحكم فى قيمة العملة ونقاوتها، بل كان من الممكن أن يقوموا بغشها تحقيقًا لمكاسبهم الخاصة دول النظر إلى المصالح العامة.

وقد أحدث منح كل سيد من السادة داخل أوروبا أيا كانت أهميته حق سك العملة فوضى فى التعامل النقدى[2]، إلى جانب أن النقود، فى فترات معينة كانت "تجمع" بمعنى أنها تسحب من دائرة التعامل المالى، وتؤخذ إلى دور الضرب، لإعادة سكها للجمهور فى عملات جديدة تكون أخف وزنًا وأكثر خلطًا فى المعدن، وكان الأمراء يحصلون الفرق بين العملتين، وعلى هذا النحو تنقص القيمة الحقيقية للعملة، وحلت محل بنس شارلمان الفضى النقى عملة ثقيلة الوزن ومخلوطة بمعدن النحاس، لدرجة أنه مع مطلع منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، لم تعد معظم الدنانير من الفضة الخالصة ولكن أصبح معظمها دنانير سوداء Nigri denarii[3].

على أنه إذا كان النشاط التجاري والاقتصادى الذى تفجر فى أوروبا قد تمكن من التغلب على بعض هذه المشكلات من خلال التنظيم الحكومى للأوزان والمعايير، إلى جانب اكتشاف معادن الفضة، على أنه لم يزد إنتاج الفضة السنوى فى أوروبا، إلا بعد منتصف القرن الخامس عشر، حين استغلت مناجم الفضة فى سكسونيا، وبوهيميا، والتيرول، وسالزبورج، والمجر، ولقد استغل أمراء هذه البلاد هذا التزايد فى دائرة التعامل النقدى لصالحهم ولتحقيق أرباح خاصة بهم، وبسبب انفراد هؤلاء الأمراء بحق سك العملات فإنهم خولوا لأنفسهم استخدامها لثرواتهم الخاصة، مغفلين ثراء العامة، وكلما ازداد التعامل النقدى الذى صاحب الحياة الاقتصادية، تعرضت هذه النقود لكثرة الخلط والتزييف من قبل أولئك الذين تخصصوا فى غش النقد، وأصبح من الشائع والمعتاد، خاصة فى القرن الرابع عشر الميلادى، إصدار نقود جديدة، تناقصت قيمتها يومًا بعد يوم، وصارت النقود

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/2، ص113.

(2) Painter, History of the Middle ages, P.236

(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص109.

- الدنانير السوداء: هى دنانير ليست من الذهب الخالص ولكنها خلطت بمعادن أخرى، وصار الذهب يكون ثلث حجمها فقط. عن ذلك انظر:
- بيرين، تاريخ أوروبا، ص109، الحاشية.

تجمع باستمرار وتسك وتوزع ثانية وهى فى أسوأ حال من ذى قبل، وكانت هنالك عمليات مالية مماثلة كثيرة الوقوع فى ألمانيا، فتغيرت العملة، وخلطت بمتوسط ثلاث مرات كل عام[1].

وهكذا كانت النقود تتعرض خلال العصور الوسطى لكثير من الانحطاط بسبب ما شابها من خلط وتزييف، خاصة أواخر العصور الوسطى بسبب الحروب التى خاضتها أوروبا آنذاك والتى أدت إلى التلاعب فى النقد، وبهذه الوسيلة استطاع الملوك أن يحصلوا على ما يحتاجونه من أموال، غير أنه ترتب على ذلك تدمير الأعمال التجارية.

فالتلاعب فى النقد وخفض سعر العملة باستمرار أدى إلى الاضطراب الاقتصادى وإلى إفلاس كثير من التجار والممولين، يضاف إلى ذلك أن الملوك اقترضوا مبالغ ضخمة من المصارف الكبرى، فلما امتنعوا عن السداد، انهارت تلك المصارف، وبتداعيها ساءت أحوال عدد كبير من الدائنين[2]، مثلما حدث مع مصرفى لومبارد Lombard، كما تم الإطاحة كذلك بتجار الهانزا[3]، وكذلك ما حدث مع المدن الفلمنكية من الإفلاس الجزئى نتيجة لما كانت تدفعه هذه المدن لكونتات الفلاندرز وملوك فرنسا مما جعلها تدخل أزمة اقتصادية متردية فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر[4].

كما أن ملوك فرنسا عمدوا إلى تخفيض قيمة النقود، فارتفعت أسعار الحاجيات والمتاجر وحدثت ارتباكات مالية، لجأ ملوك فرنسا بسببها إلى منابع جديدة للمال مثل الجابل Gabelle[5]، وهى ضريبة احتكار الملح وتقررت فى عام 742 هـ/ 1341م فى عهد فيليب السادس (729 – 751هـ / 1328 – 1350م) وغدت الجابل ركناً من أركان الدخل الملكى فى فرنسا حتى الثورة الفرنسية[6].

---

(1) بيرين تاريخ أوروبا، ص110.

(2) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم، ص131.

(3) Terry, The Financing of the Hundred years, war, P.XX.

(4) عن المدن الفلمنكية والقروض (من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر). انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.538 – 542.

(5) الجابل Gabelle: ضريبة فرضتها فرنسا على إنتاج الملح، وظل التعامل بها حتى قيام الثورة الفرنسية.

(6) أسامة إبراهيم حسيب، تاريخ إنجلترا وفرنسا، ص321.

وهكذا تعددت المشكلات النقدية والمالية فى أواخر العصور الوسطى فى أوروبا، الأمر الذى دفع التجار إلى المطالبة بوضع قوانين رقابية مثلما حدث فى كل من انجلترا وفرنسا، خاصة أن العملة القومية قد انهارت، وتم استبدالها بعملات أجنبية أقل منها فى القيمة، وقد صاحب ذلك العديد من الشكاوى بأن هناك عجز فى الأموال المتداولة الخاصة بالاحتياجات اليومية، وهذا أدى بالحكومة أن تزيد من رقابتها على مدفوعات ما وراء البحار، وعليه فقد تم حظر تصدير السبائك والأموال المسكوكة من انجلترا وفرنسا بتنظيم صارم[1].

وقد ألزمت انجلترا مصدرى الصوف الانجليز أن يجلبوا معهم عند عودتهم سبائك تساوى كمية الصوف التى صدروها إلى الخارج، أما التجار الأجانب القادمين إلى انجلترا فقد كان مفروضًا عليهم تسليم مبلغ معين من السبائك إلى دار سك النقود.

وعليه فقد أصبح انسياب السبائك أحد الأمور الرئيسية التى توليها الحكومات رعايتها وذلك على أساس أن (المال بالنسبة للجسد السياسى كالدم بالنسبة للجسد البشرى) و(أن المال هو مقياس ثروات الشعوب وهو المستودع الذى توضع به المعادن الكريمة)، وهو شعار وضع على الأملاك العامة فى فرنسا فى عام 889هـ / 1484م[2].

وهكذا ظل النقد فى أواخر العصور الوسطى محل مناقشات ومداولات كثيرة بين ما أصابه من تزييف ومحاولات إصدار القوانين من أجل التحكم فى عمليات سكه والتعامل به إدراكًا من الجميع بأهميته للعمليات التجارية خاصة التجار، على أن عمليات غش العملات لم تتوقف تمامًا طوال العصور الوسطى فقد استمر الملوك والأمراء يغشون العملة ويرفعون من قيمتها بصورة جائرة، وظلت النقود تتبع منحنى منحدرًا، وقد ضحت السياسة العامة بالمصالح الاقتصادية لحساب المصالح الحكومية[3].

ونستطيع أن نؤكد هنا على أن المدن الهانزية لم تكن بمنأى عن كل هذه المؤثرات خاصة فيما يتعلق بالنقد إذ أن ما حدث من غش وتزييف – ملوك انجلترا وفرنسا– للعملات قد أثر بلا شك على الحركة التجارية والاقتصادية التى كانت الهانزا جزء منها سواء فى انجلترا أو فرنسا على

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.333.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.333.
(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص115.

اعتبار أنها كانت مجالات تعاملات تجار الهانزا الخارجية ومقارا لمراكزهم التجارية.

**4 – تدخل السلطات الحاكمة فى فرض قيود على الإتحاد:**

ظلت الهانزا تتمتع بنفوذ مطلق على مدار سنوات طويلة، إذ لم يكن هناك أحد ينافسها فى الثراء والسطوة خاصة مع ما نالته من امتيازات واسعة، لذا استمر توجه سياسة الهانزا بعد معاهدة سلام شترالسوند Peace of Stralsund عام 772 هـ / 1370م[1]، نحو الحفاظ على امتيازاتها الممنوحة لها، وقد تمثلت الطرق السياسية المتبعة لتحقيق هذه السياسة فى التحالف والحظر الاقتصادى والحصار التجارى وكانت الحرب هى الملاذ الأخير، ولقد أوجدت هذه السياسة التقليدية فاعلية كبيرة طالما أنه لا يوجد منافسين أقوياء مثل الدنمركيين أو الإنجليز الذين كانت لهم قدمًا راسخة على شواطىء البلطيق Baltic، إذ حتى القرن الخامس عشر الميلادى لم يكن هناك رغبة أوربية فى التحالف الملكى الذى ظهر فى البلدان الاسكندنافية Scandinavian فميا يتعلق بالسياسات الاقتصادية التى تحركها أهداف اجتماعية بسيطة، ومع ذلك فعندما حدث هذا التطور فإن احتكار الهانزا للتجارة الدولية أصبح موضعاً للجدل السياسى[2].

إذ لو كان بين الممالك الاسكندنافية وحدها شىء من الرابطة فى اتحاد قوى، لاستطاعت أن تناهض التقدم التجارى بشمال ألمانيا فى العصور الوسطى، مناهضة خطيرة، لكن اتحادًا حقيقيًا بين الممالك الاسكندنافية لم يوجد البتة، اللهم إلا اتحاد كالمار Kalmar 1397– 1523م[3]،

---

(1) عن هذه المعاهدة انظر الفصل الثالث، الدور السياسى للهانزا، عن صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار الرابع ملك الدانمارك ونتائجه. ص ص175 – 176.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.392.

(3) قد جاء اتحاد كالمار نتيجة لانقراض البيوت الحاكمة فى الممالك السكندناوية، فعند وفاة فالديمار الرابع ملك الدانمارك عام 1375م، كانت ابنته مارجريت زوجة لهاكون السادس ملك النرويج الذى كان هو نفسه الوريث الشرعى لعرش السويد، وإن كان قد أبعد عن هذا العرش نتيجة لعزل والده واختيار ألبرت الألمانى بدله (1363 – 1389م)، على أن مارجريت كانت على درجة كافية من المهارة مكنتها من تنصيب ولدها الصغير أولاف ملكا على الدانمارك، وبذلك غدت بعد وفاة زوجها هاكون السادس سنة 1380م وصية على عرش الدانمارك والنرويج جميعًا، ولكن أولاف توفى عام 1387م فخلفته أمه فى العرش، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت الأحوال فى السويد بسبب الخلاف بين النبلاء السويديين وملكهم الألمانى، ولم يتردد النبلاء عندئذ فى دعوة مارجريت للتدخل ومساعدتهم ضد الملك المغتصب، باعتبارها صاحبة الحق الشرعى فى عرش السويد، فتدخلت مارجريت وانتصرت وبذلك أتيحت فرصة ذهبية لتوحيد الممالك السكندناوية الثلاث. =

حين غدت الدانمارك والسويد والنرويج كلها تحت التاج الدانمركى[1].

ويمكن التذكير بأنه منذ أيام فالديمار ايترداج Waldemar Atterdag، كان للعصبة دائمًا صوت مسموع فى انتخاب أحد حكام الممالك الشمالية الثلاث فى ذلك الركن الشمالى الغربى من أوروبا[2]. وهو ما حال دون اتحاد هذه الممالك الثلاث تحت حكم حاكم واحد مشترك[3].

وإذا استطلعنا أحوال تلك الممالك الثلاث وكيف كانت سياستها تجاه مدن الهانزا الألمانية سنجد أنها اتسمت بالتذبذب فى التعامل معهم ما بين السماح لهم بالامتيازات وما بين وقفها وتجدديها وفقا لظروفها ولضغط الهانزا كذلك.

ففى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أصبح لسكان المدن فى الدانمارك Denmark، والنرويج Norway، والسويد Sweden، فى كل دولة عقارات تتمتع بامتيازات، اعتمدت على دروهم كوسطاء فى التبادل التجارى داخل الدولة، فلقد كانت فرصهم محدودة فى جعل السياسات القومية تنعكس على مصالحهم الخاصة، والتى قيدتها السيادة التجارية لألمانيا وعلو نجم الطبقة الارستقراطية من الناحية الاجتماعية.

ومن الممكن أن يكون حدث هذا عندما اكتشف الملك أو الطبقة الارستقراطية أو كليهما

---

= وبمقتضى اتحاد كالمار سنة 1397م رضيت النرويج والسويد والدانمارك بأن يحكمها جميعًا ملك واحد على الدوام، على أن الفوارق الطبيعية والحزازات المتبادلة بين الدول الثلاث فضلا عن الانقسامات والمنازعات الداخلية، جعلت من الصعب استمرار اتحاد كالمار، بالرغم من أنه استمر فى صورة اسمية ما يقرب من قرن. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص ص608 – 609.

(1) فيشر، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص ص229 – 230.

(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.219.
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundla, P.270.
- Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP.42-43.

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص597؛ نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص148؛ فشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص228 – 229.
- لمزيد من التفاصيل عن صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار ونتائجه. انظر الفصل الثالث (الدور السياسي للهانزا) مبحث صراع اتحاد الهانزا مع ملك الدانمارك. ص ص199-201.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.219.

أن مصالحهم عامة تكون مع أهل المدن، ومن ناحية أخرى فإنهم قد حققوا الامتيازات المطلوبة، لكنها كانت امتيازات فى الواقع قليلة الأهمية[1].

كانت الطبقة الأرستقراطية المالكة للسفن والمسيطرة على البحر فى الدانمارك هم الحماة الرئيسيين للتجارة فيما قبل قيام الهانزا، فقد بذلوا جهدًا ضائعًا مع أهل المدن النرويجيين من أجل وضع قيود على النفوذ التجارى الألمانى، وبعد المصادمات الحاسمة التى وقعت فى ثمانينيات القرن الثالث عشر الميلادى قامت الحكومة الملكية بإصدار مراسيم من وقت لآخر من أجل وضع العراقيل فى طريق إنشاء مستعمرات ألمانية وتأسيس شركات أو اتحادات تجارية فى النرويج، وفى عام 694هـ / 1294م تم منع التجار الأجانب من الإبحار شمال بيرجن Bergen، وفى العام التالى تم حظر تأسيس أى نقابات مهنية بوجه عام، وفى عام 715هـ / 1315م و 716 هـ/ 1316م، تم السماح ببيع سمك القد والزبد للأجانب فى مقابل أن يجلبوا الجعة والدقيق والحبوب إلى الدانمارك.

وفى عام 1316م كان لوكلاء الملك الخيار الأول لشراء جميع السلع المستوردة، وفى عام 717 هـ / 1317م تم السماح للأجانب بالعمل فى التجارة فى الفترة من 14 سبتمبر وحتى 3 مايو فقط مع تجار محددين ومعينين فى كل مدينة ويكون ذلك مقيدًا بالبيع بالجملة، وفى عام 718 هـ/ 1318م قام الملك هاكون الخامس Haakon V (614 – 992 هـ / 1217 – 1263م) بإلغاء هذا الأمر، لكنه اشترط على التجار الأجانب أن يتاجروا مع النرويجيين فقط.

لقد تكرر هذا القرار مرة أخرى في عام 747هـ/1346م وأضيف إليه الحظر على جميع تجارة التجزئة، وعلى التجارة مباشرة مع الفلاحين خارج المدن، لكن كل ذلك لم يحرك ساكنًا، ففى منتصف هذا القرن الذى صدرت فيه قوانين المنع قام سكان لوبيك Lubckers، بتأسيس مصنع تجارى ضخم في بيرجن، وقاموا بجذب تجارة الأسماك من الساحل الغربى للنرويج إلى تلك المدينة (بيرجن) وأصبحت السلطة بأيديهم وعندئذ أصبح وكلاء الملك معدومى الحيلة، إذ كان بأيديهم سلاح قاتل يستخدمونه ضد الدولة التى يحدث بها عجز دائم فى الغذاء – وهو حظر إمدادهم بالحبوب وبالتدريج توقف النرويجيون من القتال على الرغم من أنهم لم يكونوا أبدًا راضين عن الدور التجارى الذى يلعبه الألمان، ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن اختفاء هذه الروح القتالية تزامن مع

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.392.

التدهور العام فى النشاط السياسى لطبقة النبلاء النرويجيين[1].

وهكذا نستطيع أن نؤكد على أن السلطات الحاكمة فى الممالك الإسكندنافية كانت تسعى بكل قوتها إلى مقاومة نفوذ العصبة الهانزية داخل أراضيها بما كانت تصدره من قوانين تعوق نشاطها، إلا أنها لم تتمكن غالبًا من مواجهة ذلك بسبب سلاح حظر تصدير الحبوب إلى تلك المدن وهو السلاح الذى أثبت فاعليته على مدى سنوات طويلة ومكنها من البقاء والمقاومة، على أنه إذا كان الألمان قد تمكنوا من إضعاف الروح القتالية لهذه الممالك فى البداية، إلا أنها تمكنت من خلال اتحادها من مقاومة نفوذ الهانزا فى أراضيها مقاومة فاعلة، بل والتخلص من سلطة العصبة الهانزية الاحتكارية.

ونفس ما حدث فى النرويج تكرر مثله فى السويد Sweden، فقد قام الملك ماجنوس الثانى Magnus II فى عام 748 هـ / 1347 م بتقييد التجارة المتوجهة إلى المدن ومنع الأجانب من العمل فى تجارة التجزئة أو التجارة المباشرة مع الفلاحين، ومن ثم اضطر تجار المدن الغربية لفلندا Finland، والمدن السويدية الواقعة شمال ستوكهولم Stockholm بالإبحار فقط إلى ستوكهولم ببضائعهم، وقد كان لوكلاء الملك الخيار الأول فى بيع جميع السلع القادمة إلى المدينة، ولقد ظهر طموح النرويجيين فى تخطى هذه القيود بشكل واضح، ويمكننا أن نتذكر أن السويد والنرويج انضمتا فى اتحاد عام تحت زعامة ماجنوس.

حظيت جهود ترويج التجارة فى ستوكهولم باهتمام مشترك من جانب الملك والنبلاء السويديين البارزين بمقاطعات مالار Malar الواقعة حول المدينة "ستوكهولم"، وفى نفس الوقت كانت هناك محاولة لتفعيل القانون لحماية المصالح التجارية للسكان السويدين (أهل المدن) من المنافسات الخارجية لكن هذا كان أمرًا نظريًا أكثر منه عمليًا، فقد سيطرت المدن الهانزية وخاصة لوبيك Lubeck، على التجارة الخارجية للسويد وظلت دون منازع حتى بعدما أصبحت البلاد تابعة لحكومة محلية، ومن ناحية أخرى لم توضع أى قيود على النقابات الألمانية فى السويد لأن

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.392-393.

– لمزيد من التفاصيل عن مصنع بيرجن Bergen انظر الفصل الرابع مبحث مراكز العصبة الهانزية الخارجية فى بيرجن، ص ص227 – 238.

الألمان سيطروا على نقابتين تجاريتين كبيرتين فى ستوكهولم، ولقد جنت السويد أرباحًا ثابتة من التجارة الألمانية ولم نر أى بديل حقيقى لقبول الهانزا كشريك تجارى وفى نفس الوقت كانت هناك حاجة إلى الدعم السياسى من قبل الهانزا ضد الدانمارك من أجل منع السويد من إبراز المصالح القومية فى سياق النقاش حول الامتيازات والرسوم الجمركية[1].

وهكذا نجد أنه دائمًا تتصالح المصالح الاقتصادية حتى وإن تعارضت مع السياسة، فلقد كان لدى السويد رغبة أكيدة فى تخليص سكانها من المنافسات الخارجية عن طريق إصدار القوانين اللازمة لحماية مصالح هؤلاء السكان التجارية، إلا أنها لم تنجح فى مواصلة تلك السياسة لحاجتها الماسة لدعم الهانزا السياسى ضد الدانمارك.

أما إذا تناولنا بالحديث المملكة الثالثة من الممالك الاسكندينافية ألا وهى الدانمارك وعلاقتها بالهانزا، التى نجدها قد وقعت فى مشاكل سياسية كبيرة مع الدانماركيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فعندما قامت الهانزا بدعم عرش مارجريت Margaret (1387 – 1412م) بعد اتفاقية سلام شترالسوند Stralsund عام 772هـ / 1370 م، فمن ثم فإنها حصلت على حقوق وامتيازات فى ممالكها المتحدة فى كل من الدانمارك والنرويج حتى وفاتها عام 815 هـ / 1412م[2].

ويبدو غريبًا أن الدانمارك وهى أقوى دولة فى الممالك الإسكندنافية تكون آخر من يطبق التشريع الوقائى الموجه ضد التجارة الألمانية، وهذا يبدو غريبًا لأن الدانمارك شعرت بآثار السيادة التجارية لألمانيا قبل النرويج، وحتى عام 799هـ/1396م، لم تكن الملكة مارجريت قد قامت بقصر جميع التجارة المتجهة إلى المدن فى الدانمارك.

والسبب فى ذلك قد يرجع إلى أنه حتى ذلك الحين لم يتم إخضاع نبلاء الدنماركية إلى الحد الذى يجعلهم عاجزين عن الدفاع عن التجارة المربحة المباشرة فى الماشية والمواد الغذائية مع الألمان، وعلى الصعيد الآخر فإن الاهتمام الحقيقى لثروة البرجوازيين بالمدن الدنماركية كان تابعًا لمرسوم

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.393.
(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.20-21.

مارجريت[1].

ولعل تلك السياسة التى اتبعتها مارجريت تعود إلى شعورها بقوة الهانزا خاصة بعد انتصارها على والدها فالديمار، ودعمها كذلك فى الوصول للعرش.

على أنه حتى لو تبنت مارجريت ومستشاريها وجهات نظر مالية ضيقة الأفق فى تعاملهم مع المدن، فقد كان من الواجب عليهم أن ينظروا إلى ميزة الزيادة السريعة فى موارد التجار الدانمركيين إذ من الممكن أن يكون دار بخلدهم وتوقعوا إمكانية كسب حليف سياسى جديد[2].

لكن خليفتها إرك Eric 815 – 843 هـ / 1412 – 1439م، حاكم بوميرانيا Pomerania كان أقل مجاملة فأثناء جلوسه على حكم مدينة شلزويج Schleswig[3]، الواقعة على برزخ هولشتين Holstein، قد ورط إرك الهانزا فى خدعة سياسية وفى حرب غير شرعية والتى صبت فى صالح منافسيهم الهولنديين وأثرت على وحدة الهانزا[4]، ولقد دعا الملك إرك التجار الإنجليز والدانماركيين إلى مدينة لاندسكرونا الجديدة The new town of Landskrona[5]، وأوقف امتيازات الهانزا فى عام 827 هـ/ 1423م عن طريق فرض رسوم جمركية جديدة على التجارة المارة عبر المضيق[6].

وقد استغل إرك سيطرته على مضيق الدانمارك لمصلحته السياسية فقد قام بجباية مكوس من جميع السفن التى تمر من خلاله وقد رحب التجار الهولنديون والإنجليز فى الموانىء الدنماركية والنرويجية بالخسارة الاقتصادية التى لحقت بالهانزا، وبعد وفاة أهم شخصية تاريخية فى الهانزا، الدبلوماسى

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.393-394.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.
(3) شلزويج Schlewig: تقع شمال نهر سشيل Schile. عن ذلك انظر:
- Adam of Bremen, History of the Archbishop of Hamburg Bremen, trans. Taschan (F.J), New York, 2002, P.50,Note 167.
(4) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.21.
(5) لاند سكرونا Landskrona: تقع مدينة لاندسكرونا جنوب السويد على مضيق Oresund، وإلى الشمال الغربي من مدينة مالمو Malmo. وتم تأسيسها من قبل إريك Eric ملك بوميرانيا Pomerania، ملك السويد والدانمارك والنرويج. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.24.
(6) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

المحنك جوردان بليسكو Jordan Pleskow، فى عام 829هـ / 1425م، والذى حافظ على العلاقات الدبلوماسية مع الدانمارك حتى ذلك الحين – قامت المدن الوندية بإعلان الحرب على الدنماركيين فى الوقت الذى كان فيه الأسطول التجارى للهانزا قد بدأ يتجهز ثانية للقتال بعد أن لقى هزيمة فى المضيق، فقد خسر إرك عندما نقضت السويد تحالفها معه، حتى أجبر على منح امتيازات غير مرغوب بها للهانزا، ومن ثم فقد تم خلعه من حكم البلاد[1]، ولكن خليفته كريستوفر البافارى Chriatopher of Bavaria 843 – 852 هـ / 1439 – 1448م[2]، واصل موقفه العدائى ضد الهانزا.

ولم تكن الخيانة التى قام بها البروسيون نتيجة لخطأ السيد الكبير لمنظمة الفرسان التيوتون، وذلك لأن هذا التنظيم أساسًا قد فقد سيطرته القوية فى محاولته الفاشلة للحفاظ على احتكار الهانزا، وقد استاء مواطنوا بروسيا وجيرانهم البولنديون من السيطرة السياسية والاقتصادية للنظام التيوتونى وسعوا إلى التجارة خارج الاتحاد الهانزى، وقد شجع الملك البولندى فلاديسلاف ياجيللو Viadislav Jagiello (788 – 838 هـ/ 1386 – 1434)[3]، التجار على التجارة

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.21.

- كانت سياسة إرك قد أثارت سخطاً عاماً نظراً لمحاولاته مضاعفة نفوذه من جهة وزيادة الضرائب من جهة أخرى، وهكذا تجمعت عدة عوامل لتدفع السويد نحو الانفصال واختيار حاكم عليها من أبنائها عام 1425م، كذلك أعلنت الدانمارك عزل إرك سنة 1439م واختارت بدلا له كريستوفر البافارى، وبعد كريستوفر هذا اختار الدانماركيين كريستيان الأول، عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص609.
- عن الإطاحة بإرك انظر أيضًا:

- Keppen, The World in the middle ages, Vol. II, PP.545-546.

(2) كريستوفر البافارى: عاش في الفترة من (1418-1448م)، وقد تولى ملك الدانمارك (1439-1448م)، والسويد (1441-1448م)، والنرويج (1442-1448م)، وقد شهدت فترة حكمه انحساراً في السلطة الملكية نتيجة لسيطرة المراكز التجارية في شمال ألمانيا ممثلة في الرابطة الهانزية. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.905.

(3) فلاديلاف ياجيللو: كان ياجيللو هو دوق ليتوانيا الأكبر، تزوج من ملكة بولندا (يادويجا) وفقا لوثيقة كريفو Krewn فى 14 أغسطس 1385م، فما إن بلغت يادويجا سن الثانية عشرة، حتى وصل ياجيللو إلى مدينة لوبلن Lublinفى شرق بولندا فى أول فبراير عام 1386م، وفى الثانى من فبراير اختير ملكا على =

الخارجية وعندما حاول السيد الكبير عبثاً معاقبته فإن الفرسان التيوتون لاقوا هزيمة نكراء على أيدى البولنديين فى عام 813هـ/ 1410م، وهذه الهزيمة التى وقعت فى تاننبرج Tennenburg، غيرت مصير الفرسان إلى الأبد وقد سعوا على مدار نصف القرن الذى تلى ذلك إلى استعادة قوتهم، ولكن بلا فائدة ومن ثم فإن النظام تنازل فى نهاية المطاف عن سيطرته على أغلب بروسيا وهولندا فى اتفاقية ثورن Treaty of Thorn، فى عام 871هـ / 1466م، وأصبح السيد الكبير تابعًا لملك بولندا[1].

وهكذا فقدت الهانزا أحد أعضائها المهمين ألا وهو النظام التيوتونى، على أنه لم يكن العضو الوحيد الذى خسرته الهانزا إذ الأعوام التالية شهدت زيادة الفرقة والتفكك بين مدن الهانزا.

ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث لم تمر مرور الكرام بالنسبة للعصبة ففى الوقت الذى فقدت فيه احترامها وهيبتها الدولية التى منحها لها النظام، فقد تحررت الهانزا من الأوزان الغير متكافئة والتى استخدمها الأعضاء وهى كبيرة الحجم وغير متجانسة. إن التغيرات الرئيسية في كيفية حمايتهم للتجارة البرية مثلت أهمية كبيرة لوارداتهم ففي الوقت الذي ظلت فيه دانزج تتبع الهانزا وتتمتع برخاء كبير بسبب توسعها التجاري واستقلالها الذاتي كانت مناطق أخري للهانزا قد بدأت في الإنحسار,وكانت العقبة الأولى هي أن هذا النظام العاجز قد أثر على منطقتي ليفونيا وروسيا.

إن السيادة القوية التى فرضتها الهانزا على نوفجورود الحد الشرقى لها قد فقدتها فى حروب

---

= بولندا، وبعدها بعشرة أيام دخل بشكل مهيب وفى احتفال ضخم مع إخوته وأبناء عمومته إلى العاصمة كراكوف وفى الخامس عشر من فبراير 1386م تعمد ياجيللو وتسمى باسم مسيحى هو فلاديسلاف وفى الثامن عشر من نفس الشهر أتم زواجه من ملكة بولندا وفى الرابع من مارس نصب فعليا ملكا على بولندا. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص164 – 165.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.21 – 22.

- لمزيد من التفاصيل عن معركة تاننبرج واتفاقية ثورن انظر الفصل الثالث، الدور السياسى للهانزا، مبحث دور منظمة التيوتون فى اتحاد الهانزا، ص ص168 – 176.

- See Also: Jan Dtugosz, The Annals of Jan Dtugosz, PP.374-408.

إيفان الثالث Ivan III[1]، فى القرن الخامس عشر وفى الأعوام التى تلت حكم بروسيا، أما غيرها من المدن الليفونية الأخرى مثل دوربت وريجا وريفال Dorpat, Riga, and Reval فقد بدأت فى تفضيل التجار المحليين على غيرهم[2].

هكذا أخذت العلل والفرقة تتكالب على مدن الهانزا، إذ أن القوة الوحيدة الفاعلة التى كانت تطبق من خطط الحظر والحصار الاقتصادى لم تعد تجدى نفعًا بفضل الهيمنة الهولندية وبفضل التجار المنافسين من ألمانيا الشمالية خاصة تجار نانبيرج Nunberg، وقد انضمت أغلب التحالفات السياسية في أغلب المدن اللهم باستثناء إنجلترا. ففي الوقت الذي كان لا يزال فيه حكام ليفونيا واسكندنافيا وبيرجندي عندهم الرغبة فى التجارة فإنهم اختاروا زيادة المصالح الممنوحة للتجار التابعين لهم على المصالح الممنوحة للألمان[3].

من ذلك ما قام به كريستيان الأول Christian I 854 – 886هـ/ 1450 – 1481م[4]، حين سمح للتجار الألمان فى عام 880هـ/ 1475م، بالإبحار إلى الموانىء الدانماركية فى الوقت الذى منع فيه التجار الدانماركيين عن الإبحار إلى ألمانيا وأصدر مرسومًا يحدد المرافق

---

(1) إيفان الثالث Ivan II: حاكم روسيا، هو إيفان إلكسندروف الروسي Russia Ivan Vasilyevich (1440-1505م)، قد عزز سلطة النظام الملكي ووضع الأسس لقيام دولة مركزية، وجعل موسكو قوة عظمى. كما كان له الفضل في الاستيلاء على أوكرانيا Ukraine من بولندا Poland وليتوانيا Lithuania. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. V, P.475.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.22.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.22.

(4) كريستيان الأول: اختاره الدانمركيون، بعد كريستوفر البافارى – وهو أمير أولدنبرج ووريث شلزويج– هولشتين وقد دأب كريستيان الأول على تحسين مركزه فى النرويج، كما ورث شلزويج هولشتين عام 1460م، وقد استمرت السويد فى موقفها العنيد من الاتحاد (كالمار) فاختارت أحد أبنائها وهو= =شارل الثامن ملكا عليها ولكن كريستيان الأول استطاع التخلص من هذا المنافس ليضمن بقاء الاتحاد الإسمى الذى يحقق له نفوذا صوريا فى السويد، ومع ذلك لم يرض السويديون بالهزيمة فثاروا ثورة جامحة وأجبروا كريستيان على تنصيب أحد أبناء السويد نائبًا عنه على أن تكون بيده السلطة الفعلية فى البلاد. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص609 – 610
- عن المقاومة السويدية ضده كذلك ونتائجها، انظر:
- فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص230.

المختصة بصادرات الخيول والماشية من الريف الدنماركى إلى ألمانيا، ومع ذلك وفى نفس المرسوم تم منع الألمان من قضاء فصل الشتاء في المدن الدانماركية وقام بإلغاء جميع النقابات الألمانية، وفى عام 882هـ/ 1477م، تم السماح للدانماركيين بالإبحار إلى ألمانيا لكن استمرت القيود المفروضة على الألمان منها عدم السماح لهم بالإقامة الدائمة فى الدانمارك، وفى عام 896هـ/ 1490م، جدد الملك هانس Hans، هذه القيود بعبارات قوية ومنع البرجوازيين الدانماركيين من أخذ أموال وسلع من التاجر الأجنبى، بل يكونوا مفوضين من قبله أو يقوموا بالبيع لحسابه، وفى نفس العام قام بعقد معاهدات تجارية مع إنجلترا وهولندا وقد شهدت الأعوام التى تلت هذه المعاهدات تعاونًا سياسيًا مع قيصر روسيا والرئيس الجديد لنوفجورود[1].

وعندما تولى العرش الدانماركى كريستيان الثانى Christian II[2]، عام 919هـ/ 1513م، اتخذ موقفًا أكثر حزمًا خاصة مع ما اتصف به في التاريخ من أنه طاغية، فقد كان حاكمًا للنرويج Norway قبل أن يتولى عرش الدانمارك، وبهذه الصفة من الممكن تصور مدى الكراهية المريرة ضد هؤلاء الأجانب الطغاة، (هؤلاء هم الإسكافيون الألمان)، كما دعاهم، حتى أنه غامر وقام بإغلاق أبواب مدينة بيرجن Bergen فى وجههم، وقال أنه بالفعل يفضل توسعة حجم تجارته بجميع الطرق غير طريق الهانزا، وقد حاول اتخاذ وسائل أفضل وأهدأ لأهل بيرجن ومواطنيها المظلومين لأن الخوف مازال كبيرًا على الرغم أنه عندما توج كريستيان ملكا على الدانمارك لم يضع عقبات وعراقيل فى سبيل مباشرة تجديد جميع المعاهدات والامتيازات الهانزية المنصوص عليها، وذكر أنه يجب أن تكون موانىء النرويج مفتوحة أمام الهولنديين، وفى مقابل ذلك رغب فى مساعدتها ضد السويد Sweden، التى كان فى حالة حرب معها لذا فإن العصبة وعلى رأسها

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.

(2) كريستيان الثانى Christian II: عاش في الفترة من (1481-1559م) تولى مُلك النرويج والدانمارك (1513-1523م) وتمثل فترة حكمه نهاية لاتحاد كالمار (1397- 1523م) وهو اتحاد سياسي يضم (الدانمارك والنرويج والسويد) حصل على التاج الذي مُنح له بامتيازات كبيرة وكان يشمل سيادة على الحكومة من قبل النبلاء في مجلس الدولة. وقد منح التجار امتيازات تجارية ولبى مطالب النبلاء الدانيين وتجار العصبة الهانزية في اتحاد تجار الشمال الألماني. انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.896.

لوبيك سعدت بتولى هذا الملك الجديد وموقفه بالنسبة لهم، ولكن لم تمض عدة سنوات إلا وقد اكتشف أن كريستيان أكثر صرامة من أسلافه السابقين، فقد كره الهانزا، واستاء من أن المضيق والبحر الدانماركى خاضعين للسيطرة الأجنبية، والسيطرة المطلقة للهانزا فى أسواقه[1].

لقد كانت خطته التى وضعها فى عام 927هـ/1520م، تهدف إلى توحيد جميع التجار الإسكندنافيين ودمجهم فى شركة تجارية كبيرة وذلك نتيجة منطقية لزيادة نفوذ البرجوازية على السياسة الدانماركية[2]، فقد كان هدفه من هذا الاتحاد كسر قوة الأرستقراطية، ورجال الدين، وتحرير شعبة الفقير من القيود التى كانت تفرضها عليهم الهانزا لمدة تسعة قرون، وقد كان ذلك يمثل الحقيقة أصدق تصوير لكن كانت هناك حاجة لأن يتم تنفيذه بحنكة واعتدال، إلا أن كريستيان لم يكن يمتلك هذه القدرات، بل أنه أصبح شخصًا مكروهاً بسبب قسوته وأسلوبه المتغطرس[3].

ونجمل ما سبق فيما ذكره المؤرخ الاقتصادى بوستان Postan، من أن السياسات التجارية لحقبة العصور الوسطى فى منطقة البلطيق Baltic، من أولها إلى آخرها هى سياسات هانزية Hanseatic، ولقد ظهرت بعض الإجراءات المناهضة لها من قبل الدول الإقليمية.

ففى القرن الخامس عشر الميلادى بدأت الدانمارك والسويد، فى العقود الأخيرة من هذا القرن، فى استحداث قوانين انبثقت بشكل ظاهر من القوى التجارية فى المدن المطلة على المضيق أو استجابة للمصالح التجارية لتجار ستوكهولم Stockholm، وأصحاب المناجم بالسويد، إذ أن الهيمنة التجارية للهانزا مكنتها من تأمين قبضتها السياسية منذ أقدم العصور على الطبقة البرجوازية فى جميع بلدان البلطيق حيث عمل المستعمرون الألمان كوسطاء تجاريين.

ويعكس النقص فى السياسات التجارية الفاعلة فى اسكندنافيا Scandinavia، ضعف التجار الأصليين (أهل البلاد)، إلا أنه فى القرن الخامس عشر الميلادى حصلت بعض مجموعات منها على قوة كافية مكنتها من صياغة سياستها، وهذا بدوره أدى إلى تطوير الأفكار الاقتصادية على المستوى القومى الحكومى، وعليه فإن الهانزا واجهته مشكلات حقيقية فى مواصلة سياستها فى

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.219-220.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.394.
(3) Zimmern, The Hansa Towns, PP.220-222.



obeikandl.com

اسكندنافيا[1].

على أن اتخاذ مثل هذه التدابير المناهضة للعصبة الهانزية لم تكن تقتصر فقط على الممالك الاسكندنافية؛ بل اتخذت انجلترا مثل هذا الموقف، فلقد رأينا من قبل كيف كان الشعب الانجليزي رافضًا لسياسة الاحتكار الهانزي لتجارة الصوف الانجليزي، وأنه اتخذ موقفًا عدائيًا من العصبة امتدت لحرب أنجلو هانزية قصيرة بيد أن الملوك الانجليز دأبوا على تحديد الامتيازات لهم بسبب قيامهم بتمويل هؤلاء الملوك خلال حروبهم والتى امتدت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، إلا أن بعض الملوك الانجليز اتخذوا موقفًا مغايرًا من الهانزا، من هؤلاء الملك هنرى الثامن Henry VIII[2]، الذى لم يضع العوائق فى سبيل تحديد الامتيازات الهانزية، إذ كان لا يزال يرغب فى الحصول على المال الهانزي، لكن بعض وزرائه وخاصته رفعوا راية الحرب كما أن كل من مدينة ولزى Wolsey، وكورمويل Cromwell، اتخذتا سياسة مناهضة الألمان، وأصبح هناك أعمال شغب ضد الأجانب الموجودين بها حتى أصبح أول يوم فى مايو عيد سنوى لديها تقريبًا، وقد قام مجلس مدينة لندن London بتقديم التماس لإقصائها والتخلص منها، وفى الأول من مايو عام 1517م، اندلعت حالات شغب مناهضة للأجانب تدريجيًا وبصورة غاية فى الخطورة حتى أن الملك أرسل بنادق وقوات من البرج Tower، لقمعها.

وهكذا نرى أن المشاحنات ضد الهانزا لا تنتهى، ولقد ظلت السنوات التالية تحمل المفاوضات بين الهانزا والسلطات الانجليزية فما تكاد تختتم المفاوضات حتى يتجدد النزاع مرة أخرى[3]، ولعل ذلك الأمر ظل حتى تم تدمير ستيليارد لندن فى عام 1077هـ/ 1666م.

بالإضافة إلى ما سبق جاءت الفرقة بين المدن الهانزية، وعدم الولاء من قبل بعض أعضائها –مثل بروسيا ودانزيج، وغيرها– بأثر عكسى على وحدة الهانزا، إلى جانب عدم التآلف فيما بينهم

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.396.

(2) هنرى الثامن Henry VIII: ملك إنجلترا، عاش في الفترة (1491-1547م)، يعتبر واحداً من أقوى الملوك الإنجليز الذين برزوا في بدايات حركة الإصلاح الإنجليزي، وقد نجح في الوصول إلى العرش الإنجليزي في عام 1509م. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.1028.

(3) Colvin, The Germans in England, PP.150-153.

نتيجة لفرض المزيد من الضرائب الجديدة، والتى رفضتها بعض المدن – مثل كولونيا – مما أدى لابتعادها عن الهانزا والتى قامت بإبعاد كولونيا رسميًا من عضويتها فى عام 876هـ/ 1471م، كما وجدت عوامل محلية ساعدت على تزايد الفرقة بين المدن الهانزية[1].

هكذا أخذت الأخطار تحيق بالنجاح الهانزي فى ذلك الوقت ليس فى انجلترا فحسب، وإنما فى غيرها من البلدان كذلك، فقد تغيرت اقتصاديات وسياسات الأسواق الأوروبية ولم تعد الهانزا قادرة على التغير معها، فالشعوب التى تخلصت من الحكومات الإقطاعية قامت بتغيير النظام العالمى، وبدأ شركاء الهانزا التجاريين بتفضل مواطنيهم فى المبادلة التجارية، على غيرهم وهذا أدى إلى الإغلاق الإجبارى لمراكز الهانزا التجارية، وأوجدت منافسة جسيمة على تجار الهانزا. أما الامتيازات السياسية فقد تغيرت فى اسكندنافيا Scandinavia، والفلاندرز Flanders، وبروسيا Prussia، والمناطق الشرقية للبلطيق Baltic، وغيرت تركيبة القوة والسلطة التى كانت تفضل الاستبداد حتى على الجماعة التجارية الضعيفة عسكريًا. وقد حلت الابتكارات التى تم التوصل إليها فى المجال التكنولوجى والملاحي للدانمارك، وكذلك السفن الملاحية الجديدة التى تسير فى الطريق الملاحى الجديد فى مضيق الدانمارك محل التكنولوجيا الهانزية التى عفى عليها الزمن وتم الاستغناء عن طريق لوبيك Lübeck، هامبورج Hamburg، البرى أسفل شبه جزيرة جوتلاند Gotland[2]. وهكذا لم يعد ميزان القوة فى صالح الهانزا وإنما أخذ فى التغير مع تبدل الأحوال من حولها وتكالبت عليها المشاكل من الداخل والخارج، فقد حارب الأمراء الألمان الإقطاعيون العصبة الهانزية بعد أن رأوا فى ازدهارها خطرًا على سلطانهم ونفوذهم[3]. إلى جانب أن العصبة الهانزية رفضت قبول تجار المدن الأخرى معها فى الوقت الذى كانت هذه المدن تسمح للتجار الهانزيين بالتردد عليها، مما أدى إلى إثارة العداوة بين الطرفين حتى انتهى الأمر إلى الصراع المسلح[4].

إذًا فإن العصبة قد كالت الأمور بمكيالين مما أضر بتجار المدن الأخرى وكان من الطبيعى جدًا أن ينشب مثل هذا النزاع المسلح بين الطرفين حتى وإن كانت مدن العصبة قد نجحت فى أن

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, PP.23-24.
(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.
(3) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.
(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

تواجه مثل هذا التمرد والعصيان ضدها فى زمن قوتها وازدهارها لكن هذه الأسباب مجتمعة أدت حتما إلى انهيارها، هذا إلى جانب أن الدول الخارجية التى كان للعصبة الهانزية مراكز وامتيازات اقتصادية أو سياسية فيها، أخذت فى القرن الخامس عشر الميلادى تدخل دورًا جديدًا من الاستقرار والتنظيم السياسى، فانحل النظام الاقطاعى وظهرت الملكيات القوية[1]. ففى أواخر ذلك القرن تطورت الأوضاع السياسية تطورًا غير ملائم لمصالح الشركة العامة للتجار الألمان (General Company of German Merchants)، -وهو الاسم الرسمى لعصبة المدن الهانزية- فطغت سلطات الملكيات الاسكندنافية وغيرها من الملكيات الشمالية، على سلطات أرباب المدينة فى تلك المدن، بل تبين أن ولاء الواحدة من تلك المدن للمملكة التابعة لها أقوى بكثير من ولائها لاتحاد لم يكن فى الواقع إلا شركة تجارية، يحسد وينافس أعضاؤها بعضهم البعض، برغم ما بينهم من مصالح عديدة ومنافع مشتركة[2]. ثم ما لبثت كل من براندنبرج[3]، وبرجنديا، والسويد أن قضت على عصبة المدن الهانزية ونفوذها فى أقاليمها، حتى إذا ما انتهى القرن الخامس عشر الميلادى أمست تلك العصبة ومدنها فى حال غير الحال[4].

تغيرت المنافسة حيث أصبحت فى سوق تجارى أكثر انفتاحًا ومن ثم أصبحت خطط الحصار والحظر الاقتصادى الذى كانت تمارسه الهانزا غير ذى جدوى، وعليه فقد دمر النزاع والفرقة القوة المؤسسية للهانزا، فازدادت حدة الخلافات الإقليمية سوء، وتوقف النمو الحركى حيث انتهت

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.

(2) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.

(3) براندنبرج: إقليم فى جنوب غرب بروسيا بين ألمانيا وبولندا استقرت به قبائل السويفى Suevi الجرمانية منذ وقت مبكر من العصور الوسطى، وفى القرن العاشر قام الإمبراطور الألمانى هنرى الأول 919 – 936م بغزوهم وفرض المسيحية عليهم، أما ابنه الإمبراطور أوتو الأول 936 – 973م فقد جعل من براندبنرج مقاطعة عسكرية يقوم على حكمها حكام عسكريين تابعين للإمبراطور مباشرة، وقد تدفق المستعمرون الألمان عليها حتى غلب العنصر الألمانى فيها، ومن ثم أصبحت ولاية ألمانية، وكان بيت الكسمبورج من أشهر العائلات التى حكمت براند نبرج لفترة طويلة. عن ذلك انظر:

– محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص105، حاشية 6، لمزيد من التفاصيل عنها انظر:

- Fay, Sidney Bradshaw, The Rise of Brandenburg Prussia to 1786 (New York, 1947), PP.3 – 6.

(4) فيشر، تاريخ أوروبا، جـ/1، ص229.

عملية التوسع فى الأراضى الشرقية للألب، أما الأحوال الاجتماعية فقد تغيرت وتصاعدت المشكلات بين مجموعة الأعضاء وأعضاء مجالس التجار لمدن الهانزا حيث تم تحقيق حالة النضج وتم ازدراء تجار الهانزا من قبل التجار المنتصرين[1]. خاصة مع تمسك العصبة الهانزية بامتيازاتها القديمة ورفضها التمشى مع روح العصر والتخلى عنها مما أوقعها فى صراع آخر[2]. إلى جانب زوال المبررات والأسباب الملحة التى من أجلها قامت الهانزا، من انعدام الأمن على الطرق وعدم وجود عدالة اجتماعية دولية، وغيرها من الظروف غير الملائمة التى لم تعد قائمة حينئذ إذ تم تأمين الطرق وتحقيق العدالة[3].

أما العوامل الخارجة عن إرادة العصبة فأهمها أنها كانت تستمد جزءً كبيرًا من أرباحها من مصايد سمك الرنجة Herring، فى بحر البلطيق، حتى أدت أسباب طبيعية مجهولة إلى هجرة هذا النوع من السمك من هذا البحر فى النصف الأول من القرن الخامس عشر حوالى عام 829هـ/1425م، الأمر الذى سبب للعصبة الهانزية خسارة فادحة[4]. إذ فقدت بذلك الأفضلية التى أحرزتها فى الصيد فقد تبخرت هى الأخرى حين ترك هذا السمك منطقة البلطيق وبدأ يضع بيضه فى بحر الشمال منذ بداية هذا القرن[5]. فخسرت مدن العصبة الهانزية أرباحها الكبيرة من صيد تلك الأسماك[6]. وبذا غدت مصايد الجزر البريطانية مصدر العيش الحلال لأجيال وأجيال من الصيادين الانجليز والاسكتلنديين، واختفى التجار الايسترلنج من ميادين التجارة البريطانية، وحل محلهم تجار بريطانيون[7]. إلى جانب ما قام به الهولنديون من ارتياد بحر البلطيق فقد بدأت أهمية شمال هولندا وزيلند التجارية تظهر فى ذلك البحر فى القرن الرابع عشر الميلادى، فأخذت المدن

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.
(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.
(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.212.
– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص599.
(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص599 – 600؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.
(5) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.18.
(6) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص149.
(7) فيشر، تاريخ أوروبا، ج1، ص229.

الهولندية، أمثال امستردام Amsterdam وروتردام Rotterdam[1]، وغيرهما تشارك فى تجارة البلطيق باتخاذ الطريق البحرى حول جوتلاند، فأدرك تجار لوبيك ما يتهددهم من خطر إذا تغير الطريق، ومع ذلك مضى الهولنديون فى نشاطهم التجارى بالبلطيق، بنقل سلع الهانزا، ثم أخذت المنسوجات الهولندية تدخل أيضًا إلى البلطيق[2]. خاصة مع تفوق تجارة وصناعة أنتويرب قرابة عام 829 هـ/ 1425م، والأكثر من ذلك أن بيرجنديا Burgundy دعمت وبشدة التجارة الهولندية الناشئة وبالتالى فإن التجار الهولنديين حلوا محل تجار الهانزا وسيطروا على الطريق الشمالى، ولكن ذلك حدث فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى حيث بدأ التغير فى النظام الاقتصادى يصب فى صالحهم، وبالتواجد الهولندى فى المجال التجارى فإن ذلك كتب نهاية لخطط الحظر التجارى التي كانت تتبعها الهانزا ففى عام 855هـ/ 1451م، وتحت زعامة لوبيك حاولت الهانزا اتخاذ حظر تجارى على الثياب الفلمنكية لكنه لم يجد نفعاً، وكان هذا بمثابة آخر حظر تجارى قامت به الهانزا ضد أى بلدة من البلدان، بسبب الأثر الكبير الذى تركه تطور الهولنديين فى طريقه بيع ثيابهم فى الأسواق الفلمنكية من قبل، ومن ثم فقد باتت الهيمنة الهولندية أمرًا محتومًا.

بدأ الانشقاق الهانزي عندما رفض أعضاؤه مشاركة السيد الكبير لمنظمة الفرسان التيوتون لهم فقد ظل البروسيون محل جذب للهولنديين بسبب تخفيض رسوم الشحن عبر الطريق البحري الجديد الذى يمر بالمضيق المحازى أو الموازى لمدينة لوبيك ووسطائها[3]. حتى أن المدن التابعة للهانزا نفسها أخذت فى البحث عن مصلحتها الشخصية والذاتية بعيدًا عن مصلحة الاتحاد ذاته وليس من شك فى أن هذا يمثل نقطة الانحدار والسقوط بكل تأكيد.

كان مركز قوة وسلطة الهانزا سابقًا يقع على ساحل البلطيق فقد ظهرت على شواطئه ونمت فى البداية فكرة تأسيس العصبة التى ازدهرت ونمت فى هذه الأماكن، وكما أنها تلقت الضربة

---

(1) روتردام Rotterdam: ميناء أوربي رئيسي، وثاني أكبر مدينة في هولندا، في مقاطعة هولندا الجنوبية (جنوب هولندا). عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VIII, P.688.

– عن منافسة مدينتي أمستردام وروتردام لتجار المدن الهانزية. انظر:

- Postan, Medieval trade and Finance, P.235.

(2) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم، ص ص137 – 138.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.20.

القاضية التى أودت بها إلى الموت فى نفس هذا المكان، فلقد رأينا كيف تقدم الهولنديون تدريجيًا فى القرن الخامس عشر الميلادى، حتى أصبحوا منافسين خطرين للعصبة فقد هيأ لهم موقعهم الجغرافى الظروف ليكونوا أكثر تحررًا من الهانزيين، الذين أخضعوهم لسلطانهم، لكنهم اتسموا بالدهاء فى مواجهة ذلك، فلم يكونوا أقل حرصًا من منافسيهم، بل كانوا مثلهم فى التصرف بحكمة عندما استفادوا من الصراعات الدائرة خارج بلادهم. إذ لابد أن نستشف أن الشعوب الاسكندنافية Scandinavian وملوكهم كانوا يرزخون تحت الاستبداد المطلق الذى كان يمارسه عليهم هؤلاء التجار الألمان، فقد اقترحوا بديلا للهانزا يتمثل فى تقديم المال والدعم للملوك وتسهيل وتحسين ظروف التجارة للسكان الأصليين، وقد قبل هؤلاء هذه المقترحات بشكل غير رسمى، ولم يكن الحكام ولا المحكومين يتجرأون أنفسهم حتى الآن على التصدى للعصبة علناً لكنهم لم يبدوا أسفًا على انهيارها لأن الهانزا ما زالت قادرة على الحفاظ على منافستهم، فكان القلق ينتابهم من أعمال القرصنة من ناحية، والإصرار على مطالبهم القديمة فى الحقوق التجارية من ناحية أخرى[1].

لذا فإن تلك الشعوب وعلى رأسها الإمبراطور شارل الخامس Charles V (1519-1556م)[2]. لم يكونوا أسفين على رؤيتها وقد أضعفتها المنافسة، لأن ملوك الدانمارك فرضوا قيودًا على الاتحاد[3].

وعلى الرغم من أن لوبيك قد تزعمت فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى، مقاومة الهولنديين، إذ نشبت الحرب بين الهانزا والهولنديين فى عام 842هـ/ 1438م، بسبب ما تقرر فرضه من قيود على التجارة الهولندية وبانتهاء الحرب عام 845 هـ/ 1441م، أرغم الهولنديون اتحاد الهانزا على الاعتراف بحرية التجارة فى البلطيق، والدليل على هذا التغيير ما حدث من تداعى بروج مركز تجارة الهانزا فى الغرب بسبب تراكم الطمى فى الميناء، وما جرى من نهوض أمستردام وما أصابه

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.217- 219.

(2) شارل الخامس Charles V: الإمبراطور شارل الخامس هو نفسه شارل الأول ملك أسبانيا Spain، عاش في الفترة (1500-1558م) وهو أحد أعظم ملوك أسبانيا، وقد أصبح إمبراطوراً رومانياً (1519-1556م) وربما كان الإمبراطور الأخير الذي قام بمحاولة تحقيق فكرة القرون الوسطى بشأن إقامة إمبراطورية موحدة تحتضن العالم المسيحي كله. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.758.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, PP.219 – 220.

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.394-395.

الهولنديون من نجاح وما لحق الهانزا من فشل يعتبر خاتمة عالم العصور الوسطى[1].

هذا كله بالإضافة إلى اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند من جهة وأمريكا من جهة أخرى مما أحدث انقلابًا خطيرًا وثورة عنيفة فى اتجاهات التجارة الأوروبية، فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الغرب والجنوب دون أن تستطيع العصبة الهانزية مسايرة هذه التطورات الجديدة[2].

مثلت السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بداية لتاريخ أوروبا الحديث، إذ أنها دلالة على الانتقال من روح العصور الوسطى إلى روح العصور الحديثة، والتى تختص بعدد من العوامل القوية مثل التنمية البشرية والإصلاح واكتشاف أمريكا[3]. إذ بزغ فجر ذلك العصر الحديث فى بداية هذا القرن على اكتشاف هذا العالم الجديد، وطرق جديدة تؤدى إلى الشرق الأقصى، وقد حطم الاقتصاد القديم الكميات الضخمة من الذهب التى جرى الحصول عليه وما تلى ذلك من الثورة التجارية[4]. كل ذلك كان إيذانًا بانتهاء العصبة الهانزية.

وهكذا نستطيع أن نؤكد على أن الهانزا قد نمت حتى سيطرت على التجارة فى أوروبا الشمالية قرابة قرنين من الزمان، ولكن بعد ذلك وتحديدًا فى القرن الخامس عشر الميلادى حدثت تغيرات فى بيئتها الداخلية والخارجية والتى أوجدت ظروفًا لم يجد معها دعم المجموعة التجارية الاحتكارية والتى تعتمد على التوسع الاقتصادى المنهك للقوى، وعلى حلفاء دبلوماسيين لا يسمنوا ولا يغنوا من جوع وعلى تكنولوجيا عفى عليها الزمن وعلى طرق برية غير فاعلة.

ومع ذلك فقد كانت الهانزا شيئًا مثيرًا للمشاعر، فهى يجب أن تكون مثالا يحتذى الآن.

فهذه الوحدة السياسية للتجار والتى شكلت تحالفًا اقتصاديًا ناجحًا بين الأعضاء المخلصين الذين أثبتوا وجودهم فى عالم العصور الوسطى، وكانوا قادرين على الدفاع عن حقوقهم

(1) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم، ص138.
(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص600؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص ص149 – 150.
(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.211.
(4) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم، ص138.

إذا لزم الأمر[1].

كذلك فطنت أوروبا إلى أهمية ما قامت به الهانزا فأقامت السوق الأوروبية المشتركة حاليا والتى أثبتت قوتها وفاعليتها فى مواجهة الأزمات بل وفى السيطرة والتحكم التجارى فى العالم.

obeikandl.com

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.25.